# لماذا وُلِدْتُ هُنَا...؟

رافع حلبي

الكتاب: لماذا ولـدت هنا...؟

المؤلف: رافـع حلبـي

رقم الإيداع: ١٤٧٠١ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: 978-965-7037-37-9
الطبعة: الثانية / ٢٠٢٤

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥( ٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

# لماذا وُلِدْتُ هُنَا...؟

الطبعة الثانية

رافع حلبي

# إهـداء

إلى أُسرتي الكريمة المثالية الغالية، التي تقف إلى جانبي في كل الأمور: زوجتي سعاد (أبو ركن) وأولادي: عاصم وأدهم وحمودة وعساف...

إلى أصدقائي الأوفياء في كل مكان، وهم كُثر، وأعتبرهم إخوتي وأهلي...

بكل تقدير واحترام، أقدم لكم جميعًا، مع كل تمنياتي الطيبة، هذا الكتاب، آملاً أن ينال إعجابكم.

رافع حلبي

# تمهيد

الله -تعالى- يرانا جميعًا، ويعرف عنا كل شيء، ولا حاجة لإخباره بأي معلومة... هو السلام الحيّ القيوم القدوس، يعطي القوة والخير والمحبة والسعادة والعلم والثقافة لكل من هو عادل وفي قلبه رحمة وحِلْم، ويخاف من وجهه فقط، حتى يوم لقائه يوم القيامة... ونحن نحمده، ونشكر له فضله على كل شيء، وكل أولئك الذين يتظاهرون بالنوايا الحسنة والعمل الصالح والتضحية والعطاء، ويظلمون الآخرين، لا ينالون من مَنّه وكرمه وفضله أي شيء.

وأنا يا إخوتي وأخواتي، (أعوذ بالله -تعالى- من الأنا وحب الذات والأنانية)، ليس عندي أي اعتراض على مشيئةِ الله تعالى، فأنا مُسَلِّمٌ كل أموري له بدون استثناء، ولا يُخالج روحي وعقلي وقلبي أيّ شكٍّ في القضاء والقدر، والمصير المحتوم، والرضا والتسليم له في كل الأمور، وحده لا شريك له، فنحن بني البشر أُمِرنا بالرضى والتسليم في بادِئِ الأمر، ونَمَت ولو عن طريق الفطرة في أرواحنا وعقولنا وقلوبنا الرُّوحانيةُ المُثلى التي لا يفهمها إلا مَن حفر في كُنهِ ذاته كل المبادئ في توحيده -تعالى- دون ما سواه، وإني على درب ومسلك السلف الصالح لَسَائِرٌ بدون أيِّ تغيير للمفاهيم الدينية والأعراف والعادات والتقاليد الاجتماعية المعروفة، والميثاق والثقة والتوكُّل والعقيدة

والإيمان، والعمل الصالح، والتضحية والتقديم والعطاء والإيثار... وإنّما نَمَت في فكري ومُخيّلتي بعض التأمّلات والتساؤلات عن أمور وأوضاع ربما كانت لتكون الأفضل لنا، ولكنّني أؤمن بأنّ العليَّ القدير اختار لنا جميعًا الأفضل دون سواه، ولن يتغيّر أي شيء من إرادته العليا في رُبوبيّة ولاهُوت الملكوت -جلَّ جلاله-، بالقضاء والقدر والمصير المحتوم... حتى لو أراد كل بني البشر جميعًا تغييره، فبأمره يقول للشيء كن فيكون، فإرادته -تعالى- فوق كل شيء، وقبل كل شيء، وستكون آخر شيء، فهو الأول ما كان قبله أي شيء، وهو الآخر فما بعده أي شيء، ونحن نحيا ونموت، حتى يوم الآخرة يوم القيامة واليوم الموعود بإذنه -تعالى- لا غير.

المؤلف

# مقدمة

صالح أحمد (كناعنة)

لماذا وُلدت هنا؟!

عنوانٌ لافت... يفرض على وعي القارئ عدة تساؤلات تطرق وعْيه، وتستفز فكره منذ الوهلة الأولى، فالعنوان برأي غالبية النُّقاد والدارسين للأدب يشكّل: «سمة العمل الفني أو الأدبي الأول، من حيث هو يضمُّ النص الواسع في حالة اختزال وكمون كبيريْن، ويختزن فيه بِنيته أو دلالته، أو كليهما في آنٍ... وقد يضمُّ العنوان الهدف من العمل ذاته، أو خاتمة معرفيّة أو اجتماعيّة أو دينيّة».

لماذا وُلدت هنا؟

عنوان يجعلنا نتهيَّأ ذهنيًّا إلى أنّنا أمام نص فلسفي، ليس هذا فحسب... بل ويعتمد الفلسفة القَدَرِيّة (من القَدَر) الغيبية منهجًا ومنطلقًا... وأنّه سيحملنا إلى رحلة تأمليّة فلسفيّة في عوالم غيبيّة قدريّة خفيّة غريبة... وهو ما حدث معي تمامًا حين شرعت بقراءة نص أخي الأديب رافع حلبي -حفظه الله-. وقد اكتشفت أنّ حدْسي كان في محله، وأنّي أمام نص فلسفي بدرجة كبيرة...

أضفْ إلى ذلك: أنّي لمست أنّ كاتبنا لم يُرد أن يتقيّد بقالب محدّد، أو مذهب فكري أو أدبي من المتعارف عليه،

فهو لم يحاول مناقشة أفكاره بالطرق الفلسفيّة والأساليب الجدليّة، القائمة على سوق الدلائل والبراهين والجدليّات الفكريّة والمنطقيّة، والتسلسل المنطقي من الفرضية إلى الجدلية إلى البرهان، فالدليل والثبوت الفكري العقلي المنطقي واليقيني... كما هو متبع في المناهج الفلسفية... بل وجدته يطرح الأفكار، ويعالجها بلغة ومنطق الواثق المقتنع الذي لا يحتاج إلى دليل، ولا إلى جدل، ولا إلى أساليب إقناعٍ... إنّه يعرض ما يؤمن به، وما يراه حقيقة وواقعًا، ومنطقًا لا يقبل الجدل، ولا يحتاج إلى دليل... إنّما يحتاج إلى بصيرة وإيمان ووعي ينطلق من الروح الصافية المؤمنة الواعية المدركة.

وهو في الوقت ذاته لا يطرح الأمور على أنها مسلّمات غيبيّة قَدَريَّةٍ وكفى... بل يطرحها على أنّها أمور مستقرّة في وعْينا وحِسّنا، ومتأصّلة في روحنا... ولكنّنا تغافلنا عنها بابتعادنا عن عوالم الروح، وانغماسنا في عوالم المادّة الطاغِيَة المُطغِيَة... ما طَمَسَ عين البصيرة والوعي الروحي فينا -وبدرجات متفاوتة من شخص لآخر بالطبع- وفتح وعْينا وعيوننا على مظاهر المادّة ومُغرياتها الفانية، وصَهَرَنا في عالم التنافس المادّي الذي ملأ عالمنا ظلمًا وجورًا وفُرقة وتخاصمًا وتلاحُمًا وسباقًا محمومًا في عالم المادّة الزائف الزائل... هذا الصراع الذي أنسانا أنّ الحياة محكومة بِقَدَر لطيف خفي، كلُّنا نؤمن به في دواخلنا العميقة... ولكنّ معظمنا غَفَلَ عنه، وتناساه حين طحنته تيارات المادة

الظالمة المظلمة الطاغية المطغية...

لماذا ولدتُ هنا؟ أحد هذه الأسئلة الغامضة الغيبيّة المحكومة بالقّدَرية.. فمَن منا يملك أن يقرّر أين يُولد؟ ومتى يُولد؟ ولماذا وُجد؟ ولماذا هو موجود على هذه الهيئة، وفي هذه البيئة، وفي تلك الظروف؟...

تساؤلات قد تمر في وعي كل منّا في لحظات صفاء ذهني، أو روحي إذا أردنا الحقيقة. وكل منّا تمر به لحظات، أو تحدث له أمور تجعله يقف ليفكّر: كيف، لماذا، ما الذي جعلني أفعل، ما الذي قادني إلى ما أنا فيه؟ أسئلة تحمل في طيَّاتها أفقًا من الغرابة، لا نجد له تفسيرًا في ما تعلمنا من علوم، ولا في ما قرأنا واختزنَّا من معارف وتجارب.. ولا فيما عِشنا مشغولين بالجري وراءه... تمامًا كما حدث لكاتبنا الذي وصل صدفة إلى مكان لم يكن يقصد الوصول إليه.. ولم يخطّط بالسير باتجاهه أصلاً... قوّة ما قادته إلى المكان، ليجد نفسه أمام فتاة تغرق، وليجد نفسه يتجنّد لإنقاذها، وليجد نفسه سببًا في إنقاذها وإحيائها من جديد... ثم يجد نفسه يتساءل: كيف وصلت إلى هنا، وفي الوقت المناسب، لأقوم بالعمل المناسب؟... ولماذا أنا من دون الخلق الكثيرين الذي تجمعوا في المكان كان لي الشرف بإنقاذها؟ ولا جواب بالطبع... سوى أن يسلّم بأنّه قدر؛ سرٌّ من عوالم الروح الخفية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ .قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٨٥).

من هنا، ينطلق بنا كاتبنا ليضعنا أمام مسائل غيبيّة تستفز وعْينا، وتتحدّى عقلنا وحقيقة إدراكنا حتى لذواتنا ولأنفسنا، وما يحيط بنا... ويضعنا وجهًا لوجه أمام حقيقة كوننا نتعامل مع مسلمات، لا شأن للمنطق ولا للفكر ولا للاجتهاد البشري فيها... كالأسماء والمسميات بأنواعها، مثلاً: لماذا سُمِّيَ الشجر شجرًا؟ ولماذا سُمِّيَ الشمال شمالاً، والجنوب جنوبًا؟ والإنسانُ إنسانًا؟.. والجمادُ جمادًا؟... وقِسْ على ذلك من أمور نتعامل معها ونحن نجهل مصدرها... تمامًا كما نجهل سرّ الحياة... وسرّ الروح... وأسرار المصير... وما سرّ الغريزة فينا وفي غيرنا من المخلوقات؟... ولماذا ارتبط سرّ وجودنا وتكاثرنا ونمائنا وبقائنا واستمراريتنا كأنواع ومخلوقات بهذه الغريزة؟ وما سرّ كل هذه المخلوقات والأنواع والأشكال في عالمنا، ما نعرفه منها وما نجهله؟ وكلها غيبيّات نعيشها نتعايش معها ونواجهها؛ ونبقى عاجزين أمامها، وأمام أسرارها وعوالمها المجهولة الخفية.. ولكنّها تجعلنا نوقن في أعماق وعينا أن سرّ وجودها هو سرّ روح التكامل والتكافل في الحياة، كما أراده الخالق -سبحانه-... فكل موجود وُجِد بقدرة الموجد -سبحانه-.. وكل موجود واجب الوجود لوجود الآخر؛ بقدر الخالق المُوجد المُقدِّر -سبحانه-... ولا يُسمى الموجود موجودًا حتى يثبت وجوده... ولا يُسمى الشيء شيئًا حتى يتشيّأ، ويكون بسرّ الخالق المكنون؛ ويشغل حيزًا في الوجود والكون... وفي هذه المعادلة الخلقيّة الوجوديّة تكمن أسرار

حفظ الكون واستمراريّته المتوّجة بقوّة وخاصيّة البناء الذاتي للكائنات.

من هنا، يقودنا كاتبنا إلى إحدى أهم مشكلات العقل البشري على مر العصور... والتي لم تتغيَّر بتغيُّر المناخات والبيئات والثقافات... إنّها مشكلة تقديس الموجود لا الروح التي جعلته موجودًا (حققت وقدّرت وجوده) تقديس المكان لا الروح التي تحفظه، تقديس الجماد الفاني (المادي) لا الروح الباقية الخالدة! وهذا سرّ الصراع البشري على مر العصور «برأيه»..

من هنا، يأخذنا إلى عوالم أكثر جدليّة... وأكثر استثارة للعقل والفكر والوعي... إلى أمور لم يتمكّن العقل البشري من حسْمها... كقضية التخيير والتسيير... هل الانسان مُسير أم مُخيّر؟!.. وهو يضرب عدة أمثلة على ذلك... وهنا أيضًا يطرحها بمنطق الإيمان اليقيني القدري .. وليس بمنطق الفكر الجدلي أو الفلسفي...

وبنفس المنطق تمامًا، يورد فكرة وعقيدة تناسخ الأرواح التي يؤمن بها بعمق... ولا يرى أنّها قابلة للنقاش أو الجدل... بل إلى اليقين والإيمان والتسليم المطلق.

ويخلص إلى نتيجة مفادها: أن الإنسان تحكّمت به حيوانيّته؛ فتغلّبت على إنسانيّته أو على روح الإنسانيّة الرحيمة فيه عندما تمرّد على قوانين وتعاليم الخالق الروحانية العادلة، وتخلّى عن عالم الروح النقي الرحيم

البريء، وهو بهذا أصبح أشرس من أشرس حيوان؛ لأنّه بذلك مَكّنَ الصفات الحيوانية من التحكّم به وبسلوكه وتشكيل نهْج حياته، ومن هذه الصفات الحيوانية: «الكذب، النميمة، الفساد، العنف، الحقد، الحسد، الجشع... وغيرها»... ولذلك؛ ظهر الفساد في الأرض.

وهو يأتي بقصة يوسف -عليه السلام- كعبرة وكمثال على وحشية الإنسان وحيوانيّته التي فاقت شراسة الحيوان، ويتطوّع للاعتذار باسم الإنسانيّة من الذئب الذي ظلمته الإنسانيّة، واتهمته زورًا وكذبًا، وافترت عليه... وهو أنبل من كثير من البشر، وبقصيدة راقية رائعة، تستحق التمعّن والتأمّل والدراسة بعمق.

ويضرب كاتبُنا نيتشه وهتلر مثالاً على وحشية الإنسان، وعلى ما يمكن للعقليّة البشرية الغريزية، حين تتجرّد من عالم الروح، أن تفعل وتقترف من جرائم بحق نفسها، وبحق جنسها وبشريتها..

وهو هنا يتوافق مع آراء علم النفس القائلة بأنّ الشر دوائر وموجات كأمواج الماء وتياراته... فعل وردّ فعل... علة ومعلول... فأنت حين ترمي حجرًا في الماء الراكد... تبدأ الدوائر تتولّد واحدة عن أخرى، وتتسّع بلا حدود... هكذا الشر والظلم يتّسع بلا حدود... ويرى علم النفس أن المقهور يصبح قاهرًا، والمغدور يصبح غادرًا، والمنكوب يصبح ناكبًا... وليس لمن قهره ونكبه أو غدر به تحديدًا أو

حصْرًا، بل قد يمتد قهْره وغدْره لمن هم أصغر أو أضعف منه؛ لأن روح النقمة والقهر والغدر متمكنّة من شخصيّته، وتسيطر على فكره وعقليّته... وأنّها لن ترْدعه تجربة الألم التي عاناها عن إيلام غيره... بل بالعكس؛ قد تكون دافعه لذلك. (العلة للمعلول).

كما يرى كاتبنا أنّ الجمود الفكري، والتقوقع في أمجاد الماضي مهما كانت عظيمة، سبب أكيد للتخلّف والجمود الفكري، والتقهقر الحضاري، والتردِّي الخُلُقي والسلوكي والمجتمعي... وهو داء الأمة العربيّة في عصرنا، بلا شك.. لأنّ عقليّة الماضي (التمسك بالماضي حدّ التقديس والجمود) عقلية خرافيّة رجعيّة مدمّرة، بلا شك.

ويصل بنا كاتبنا الحكيم إلى نتيجة راقية: «أنا وأنت نستطيع أن نغير العالم» إذا عُدنا إلى عالم الروح، عالم الحكمة والرحمة والمحبة، وروح المودة والإيثار. وبات كل منا يحلم بهَمِّ غيره بحبٍ ورحمةٍ إنسانيّةٍ خالصةٍ صادقةٍ.

**ختامًا:**

لا أدّعي أنّي استطعت أن أحيط بكل أفكار صديقي الأديب الراقي رافع حلبي... ولكن هي بقعة ضوء قد تشكّل نافذة تطلّ على نصّه العميق الشامل.. هذا النصّ الذي تأرجح فيه بين عالم الفلسفة والفكر... وعالم القصة والأدب.. فهو لم يقف عند حدود القصة.. فتخطاها إلى

الجدليّة الفلسفيّة... وتوَّجَهَا بولوجه عالم الشعر والبيان.. ليبدِعَ عالمًا أدبيًا متمازجًا وتجربة راقية، لا يمكننا أن نصنفها في جانب القصة... ولا يمكننا كذلك أن نجزم بأنّها مادة فلسفيّة بكل ما للكلمة من معنى... فهي إذن مزيج فكري فلسفي أدبي... أراد له كاتبنا أن يكون درسًا أخلاقيًّا، وحكمة حياتيّة أبدعتها تجربته العميقة، وفكره المُتّقد، وحكمته المصقولة في بوتقة الإيمان والعقيدة واليقين والمنطق القدري.

أشكر أخي الراقي الأستاذ رافع حلبي على أنه اختارني، وشرّفني بأن أكون أول من يقرأ إبداعه... وزادني شرفًا طلبُهُ أن أقدم لهذا النص الراقي..

أتمنى لأخي الكاتب التوفيق والتألق، ومزيد العطاء والإبداع... ولك أيها القارئ العزيز متعة الإبحار في هذا النص الجميل الحكيم الرائع.

# لماذا وُلِدْتُ هُنَا...؟

أمدَّ الله –تعالى- أوقاتكم جميعًا بالسعادة، بدأت قصتي منذ زمن بعيد، يصعب حتى تذكُّره على خيوط البال والذاكرة... وتمنَّيت في كل الزمن الماضي، كما تمنَّيت دائمًا، الخير والسعادة والمحبة لكل الناس، بدون أي تفرقة بينهم، أو تمييز عنصري على أي خلفية كانت، هنا بدأت قصتي، وهنا عشت حياتي الأخيرة على جبل الكرمل الأخضر... تمنَّيت لو أني لم أُولد هنا! تمنَّيت لو أني لم أُولد كما أنا! وفي هذا المكان بالذات، تمنَّيت في خلال عمر من السنين قد مضى، لو وُلِدْتُ معتوهًا، يبحث عن ظلِّه في نور الشمس، دون أن ينعته أحدهم بشيء، تمنَّيت لو وُلدت غير عاقل... أو مجنونًا يجوب الطرقات، ويتجوَّل في الساحات، يتحدَّث مع نفسه بصوت مرتفع، دون أن يكترث له أحد، أو ينتبه لوجوده أحد... تمنَّيت لو وُلدت ولدًا منغوليًّا، لا يحتاجه أحد، ويحتاج لعطف كل الناس، لَعلِّي كنت قد جعلت ضميرهم يتحرَّك، وعيونهم تنظر إليَّ بالشفقة والإحسان والرحمة... لا بعيونٍ امتلأت بالحقد والحسد والكراهية... تمنيت لو لم أُولد في هذا المجتمع كما أنا، يرى الأمور الصواب بعين ثاقبة، على كل دروب الضمير الحي الذي بِتنا نتحدث عنه كولد مفقود، يجب أن نعثر عليه قبل فوات الأوان، يوم التقيت بصديقتي بين نفسي وبيني، كم تمنيت أن أكون إنسانًا أو أقل من إنسان، بدون فكر وعقل يسبق من حوله بمئات الأعوام، خمسمائة عام على الأقل، يا لهذا الذلِّ! حين أتحدث لنفسي ولا يفهمني أحد، يا لهذا العمق الزمني الذي لا يراه أحد فينا إلا المفضالين الأفاضل الذين مَنَّ عليهم الله -عز وجل- بنعمة المحبة والخير والعطاء والفكر والظَّنِّ الحَسَن... وتَحَسُّسِ الأمور التي تُفيد الجميع من دون محاسبات من أي نوع، ومن دون انتظار

المقابل، هكذا هو العطاء... المهم في الأمر أن تكون إنسانًا، وهذا يكفي ليخدمكَ ويقدم لك المساعدة أخوك الإنسان في مشكلتكَ ومصيبتك ومحنتكَ، ينتابني شعور غريب جدًا؛ قد يُنهي العالم بلحظة، ويُعَمِّر العالم لملايين السنين، شعور ممزوج بالمحبة لكل بني البشر، ولكن في الحب الكبير قَتْل بطريقة جديدة وإيلام... ما أصعبه من شعور يا صديقتي لم أشعر به من قبل، آمل أن لا يتضرَّر أحد من هذه المحبة، صديقتي... نعم أعتبرها صديقتي، وما تحدثتُ معها من قبل، أو حتى لم ألتقِ بها في الطريق صدفة، ولم أرَ ملامح وجهها... ولكنَّني أتخيَّلها كما تريد روحي، وكما يريد عقلي المتحيِّر الكامن في حنايا فؤادي المتيَّم بعذاب السنين، نعم فكري المتحيِّر الكامن بين فؤادي وعقلي، أراها طويلة القامة جميلة القدِّ، وتارة أخرى أكاد لا أراها بالعين المجرَّدة، تارة شعرها طويل، وتارة محلوقة الرأس، تارة ينشغل عقلي بلون عينيها، وأعصر كل خلية منه لأتذكر لون عينيها، ولا أستطيع، أقول في نفسي بعد أن أتعب من التفكير: ربما أخضر أو عسلي، ربما أزرق أو بني، أنا يا صديقتي، والله –تعالى- يشهد على ما أقول، ما التقيتُ بِكِ من قبل، وما تحدثت معك من قبل، لكنَّني أعتبرك صديقتي، وسأتحدَّث معك إلى الأبد باحترام وتقدير ومحبة ووفاء.

سافرت لشاطئ البحر مسرعًا، وتمنَّيت أن لا أصل، ولكن المسافة من منزلي على جبل الكرمل الأخضر وحتى مدينة حيفا تساوي نصف ساعة في سفر بطيء، توجهت لمغارة سيدنا الخضر -عليه السلام-، طلبت أن يُستجاب الدعاء، ففي كل يوم يمر أتمنَّى أن يأتي يوم الغد، وفيه يأتي الخير أضعاف الأضعاف، ويكون أفضل من أمسه بملايين المرات لكل أهل

الأرض الطيبين... فالبشر صنفان: طيب وخبيث، وإن دقَّقنا في هذه الجملة، وتوجَّب علينا أن نؤكدها ونثبتها... فلن نستطيع هكذا بشكل عشوائيٍّ بسيط، والسبب يعود لمفاهيمنا كبني البشر، كل شيء للعقلانيَّة يورطنا في معادلات حسابيَّة وفيزيائيَّة وقوانين فلسفيَّة، لا يفهمها إلا البعض منَّا، حتى لو شرحوها لنا جاهدين؛ فعقولنا على ما يبدو متفاوتة، ولا يمكننا أن نقيسها بقانون معيَّن... لذا؛ يختلف تفسير الأمور عشرات ومئات الصور على يد بضع أشخاص شاهدوا معًا المشهد الواقعي ذاته، هذا ليس لأنَّهم كاذبون أو أشرار، ولكن هكذا هي بذرة الفكر تتفاعل في الجسد والروح، بدون قاعدة موحدة لكل بني البشر، فكُنه الذات متفاوت جدًا من إنسان لآخر، والأمر هذا يحثُّنا على إثبات الحضور والفرض الذاتي، لكنَّه ينقطع حبل النور هذا في المرة الأولى التي نلتقي بمجموعة شاهدت الواقع والصورة الواقعية التي حدثت كاملة.

لو أخذنا كاميرا فيديو، وصورنا فيها مشهدًا معينًا، لاتَّضح لنا أنَّنا من بين مئات الصور لم نجد حتى صورة واحدة قريبة من حقيقة الواقع، وما قد حدث يكاد يكون صورة أخرى لا تمتُّ بصلة لا من قريب ولا من بعيد للحديث الدائر بين الذين شاهدوا المشهد ذاته معًا، هكذا نحن بني البشر، وهذا ما تمليهِ علينا عقولنا التي تفكِّر، يا ليتها لم تفكِّر، ولم تُسْتَخْدَم لهذا الأمر، فباستطاعتنا استخدامها لأي أمر آخر، كمصدر لتخزين معلومات للحفظ مثلاً... نخرجها متى نشاء، فقد كان هناك في الماضي راوية لكل شاعر عظيم، حفظ شعره وقص كل شيء عنه، وهكذا استطاع الرواة تمرير المعلومات المخزَّنة في عقولهم، عقل الراوي لأجيال آتية بدون عناء، ولكن لكثرة الأحداث في عصرنا الحاضر المصوَّرة منها والمكتوبة... يعجز

عقلنا البشري عن نقل الصور والقصص والأحداث، كما هي على أرض الواقع. لذلك؛ يستعين إنسان عصرنا باستخدام آلات التصوير والحاسوب وأجهزة أخرى كثيرة للتمكُّن من إعطاء الواقع حقه كما يجب...

أخيرًا، وصلت لشاطئ البحر الأبيض المتوسط، ولا أدري لماذا سمي أبيض؟ مع أن لونه صافٍ كلون السماء التي تحتضنه، ولماذا سمي متوسطًا؟ مع أنَّه يمتد على مساحات كبيرة جدًا، لا أتحقَّق منها بالعين المجردة، وحتى لو استخدمت الناظور لن أرى آخر هذا البحر الكبير الواسع، ولو تركَ لي الأمر لسميته محيطًا... على فكرة: لماذا لا نسميه محيطًا؟

لقد اعتاد والدي -رحمه الله تعالى- منذ صغري اصطحابي إلى هذا الشاطئ في فصل الصيف للاستجمام، وأنا له شاكر جدًا، فهناك أطفال لم يروا البحر إلا في صور الجرائد والمجلات والتلفاز غير الملوَّن طيلة أيام طفولتهم، ورحت دائمًا أفكر: كيف لنا أن نربِّي أطفالنا دون عشق البحر وامتداده الإنساني الرحب؟ لا رمل يثنيهم، ولا شمس إلا واحتضنت أحلامهم... وكان أمر اصطحابي للبحر بالنسبة لي في ذلك الزمان وما زال معلَّقًا في ذهني، كما لو اصطحبنا والدي أنا وإخوتي لرحلة في دولة أوروبيَّة في الغرب، لا تقل أهميَّة عن زيارة لإنجلترا أو فرنسا...

ركنت سيارتي قريبًا من مياه البحر وأمواجه التي تلاطم الشاطئ، تتحدَّث مع حجارته، ورحت أسرح بأفكاري كما لو لم أفكِّر منذ ولادتي أو منذ الأزل، سرحت بأفكاري وكأنَّي لم أستعمل عقلي البشري هذا من قبل، كأنَّه عقل جديد لم يُستعمل حتى الآن... فكَّرت في حرِّيَّةِ وديمقراطيَّة الإنسان،

وبعمق أكثر فكرت بالطفولة والفترة المدرسيَّة، وصديقتي التي ما تحدثت معها من قبل، وما التقيت بها يومًا من قبل، ولكنِّي أعتبرها صديقتي.

عدتُ للحرية، فقلت في نفسي: يوم تصبح حريَّة الإنسان الشريعة الوحيدة في هذه الحياة، لا يبقى شيء مستحيلاً... فنحن عبيد الله –تعالى-، عبيدٌ له وحده فقط، وأسمى درجات الحريَّة العبودية للباري –تعالى-. نحن لسنا عبيدًا ليومنا وحياتنا ومصالحنا المختلفة، وللأسف؛ وصلنا إلى زمن كتبنا فيه دينًا جديدًا ظنًا منا أن هذه هي العقلانية والفكر وتحقيق الذات والطموح... كتبنا دينًا للمادة والمال، فمن يملك المادَّة يملك المال، من يملك المادَّة المحددة بذهب أو غاز طبيعي أو بترول... يملك المال والعملة الصعبة التي يصعب على مَن هم مثلي امتلاكها، وهذا الدين الجديد، دخل بيوتنا من أوسع الأبواب؛ في الجري وراء المادة والمال، فابتعدنا بُعد الثرى عن الثريا عن المبادئ والحِكَم، وأصبحت بوصلة روح العصر والزمن المعاصر ممزوجة بهذه المادَّة الغريبة التي تَفَشَّتْ بشكل واسع إلى كل أرجاء مجتمعات أهل الأرض، روح العصر أصبحت دولارًا أو روبلاً أو فلسًا أو إما دينارًا... يتحدَّث باسم الأمة والشعب، ويحكم العباد، وكأن روح العصر حكمة منوطة بالمال والممتلكات، ولا مكان فيها للضمير وللروحانيَّة والخير المتواصل المقدَّم بدون مقابل... ولا مكان فيها للحريَّة والمساواة والمحبة والتآخي والفكر والفضيلة والعطاء... وسأحدثكم لاحقًا عن هذه المبادئ قبل فوات الأوان... إهانة لكل أهل الأرض، إهانة لكل بني البشر، كيف لنا أن نخلط الأمور، ونبتعد كل البعد عن الصلاح والفلاح... كيف لنا أن نخلط الأمور، حتى أصبحنا بشرًا جياعًا

للمادَّة، المال المكدَّس في خزائن السلطان دون فائدة، العملة الصعبة أصبحت العملة السهلة، المهم أن نبيع ونشتري في كل شيء، ونحصل عليها.

تذكرت حديث صديقٍ قديمٍ يوم الأمس، حدثني عن شراء كِلية لأخيه، كان ذلكَ من شخص أجنبي عن طريق إحدى الجمعيَّات التي تعني بهذا الأمر، ومن أجل تخفيف ألم أخيه، ومن أجل جعل حياته أسهل بكثير مما هي عليه الآن، حضر رجل أجنبي «متبرِّع» - لاحظوا كلمة متبرِّع - ليتبرَّع بإحدى أعضاء جسمه لرجل لم يلتقِ به من قبل، ولم يتم بينهما أي تعارف، فَرِحْتُ جدًا لسماع هذا الخبر الأهم من بداية الشهر الجاري؛ لأنني اعتبرت الأمر عملاً إنسانيًّا، وهذا جميل جدًا أن يتبرَّع إنسان لأخيه الإنسان، دون سابق معرفة، بعضو من أعضاء جسمه ليخفِّف عن المتلقي الألم، الجسماني والنَّفساني، ورأيت في مثل هذا العمل قمَّة العطاء والإنسانيَّة معًا، وبادرت أبارك في مسعى هذا الإنسان الطيِّب الراقي، الذي بادر بمثل هذا العمل الكبير الرائع، لإنقاذ أخ صديقي، كما أنَّه تكبَّد عناء السفر من دولة بمركز أوروبا، وظننت أنَّه حضر على حسابه من مطار دولي إلى مطار دولي آخر يبعد سفر ثمانية ساعات في الطائرة، شرَعْتُ أحمد نُبْلَ هذا الرَّجل المقدام المثالي حتَّى قاطعني صديقي قائلاً: «تمهل تمهل، إنَّه يتبرَّع من أجل تلقِّي المال»، فصدمت على الفور، اصطدمت بالواقع كمن يقفز من علو ألف ميل من طائرة، بدون أن يجري حساباته أنَّه بحاجة لمظلة تنزله إلى الأرض بسلام وأمان... ولكن لماذا مثل هذه الكلمة التي تشنف الآذان: «متبرِّع»! فضحك صديقي، ثم قال: كي لا يعاقبنا القانون، هكذا إذن، هناك عمليَّة احتيال وتحايل على القانون، فكيف يسمح لكم

بإجراء مثل هذا الأمر؟ قال صديقي: الرَّجل بحاجة للمال، وهو يملك المادَّة، ونحن بحاجة للمادَّة وتدبَّرنا أمر المال... وهكذا تكون المعادلة سليمة، سندفع له المال، وهو سيعطي أخي كليته... ولن يعلم أحد بهذا الأمر المتفق عليه سرًا. هكذا إذن! احتيال على القانون؛ كي نبيع ونشتري حتى في أعضاء بني البشر... تبًّا لهذه الحياة المُحَوْسَبة الحِسابِية، تبًّا لهذه المنظومة الرقميَّة الجديدة التي تجرَّدت وجرَّدتنا معها من كل ما هو إنسان وإنسانية، مِنْ كل ما هو عطف على الرُّوح الطَّيِّبة التي لا تستحق إلا المحبَّة الروحانيَّة الربانيَّة في كلِّ الأحوال، هذا الأمر مرَّة أخرى يظهر واضحًا ليعبِّر عن عجز الإنسان، أمام عظمة ربوبيَّة الباري -عز وجل-، لحاجته الماسَّة للمال وللمادَّة، -سبحانه تعالى- كيف خلقنا في هذه العقلانيَّة المتورِّطة بفكر لاتجاه واحد لا غير...

قلت لصديقي والذي أفكِّر بفصله من حلقة الأصدقاء حتَّى من الفيس بوك، لو فهمنا مبدأ الكمال لله -عز وجل- وحده، لفهمنا هذه الحياة... يا ليتني لم أولد هنا... كي لا أسمع من أعز أصدقائي ما قاله بجديَّة، وكأنَّه يفرض عليَّ أنَّ هذا هو الطريق الصواب من وجهة نظره، ويعطيه مصداقيَّة الواقع، ويعرِّفه بالحق والعدل والشفقة والرحمة، وهنا تعلو في مخيَّلتي هذه الكلمات المبعثرة التي جمَّعتها أفكاري من هنا وهناك في قصيدة كنت قد كتبتها قبل عشرات السنين، وأنا لست نادمًا على ما أكتب، والأصح؛ أنا لست نادمًا على شيء فعلته، فكلُّ ما أفعله هو بمَحْضِ إرادتي المتناهية، ومن عميق تفكيري، وبإرادة عقلي وقلبي وروحي، ولذلك؛ أنا لا أقوم إلا بما يمليه عليَّ ضميري من دون أي ضغط أو إكراه، فأنا يا صديقي لست أداة في يدِ أحد، ولست فقير العقل،

ولست بحاجة لأحد، ولست بحاجة لأي شيء إلا لإرضاء اللّه –تعالى-، وإرضاء ضميري الخاص المتميِّز بين كل هذه الملايين والمليارات من بني البشر الراكضين خلف المجد والجاه والكرامة والمادَّة والمال...

# كلمات مبعثرة

إلى متى نهربُ من المصير
إلى متى نبقى نعيش حقيقة أخرى
من زمانِنَا المُرْهِق
إلى متى نُبَعْثِرُ الكلمات المُجَرَّدة
حول النَّفْس المُعَذَّبَة
أنا لم أختر هذا المَصِير
المَصِير هو الذي اخْتارَنِي
لكنِّي أتَقَبَّلُ كُلَّ مَا جاءَ فيه
وهنا تَعْلو فِي مُخَيِّلَتِي
كُلُّ الأسْئِلَةِ الفَلْسَفِيَّة...
ما أنا...؟ ومن أنا...؟
وما هِي قيمتي...؟
عند الفَجْرِ
وبين الكلِماتِ المُبَعْثَرَةِ
التي لا نَعْرِفُ لها نِهَايَة
ولا تَجِيءُ فِيها المُعَرَّفات
وتَبْقَى والغُمُوضُ إلى أنْ يَزولَ العَالمُ...
فَتُحَلُّ الطَّلاسِم
ويَصِلُ الفَارِسُ مَطْلَبَهُ
ويُعانِقُ الرَّبِيعُ الزُّهُور
وتُداعِبُ الشَّمْسُ حُروفَ الكلِمَات

وقِطَعَ السَّمَكِ المَعْروضَةَ للتَّجْفِيفِ
في جَزائِرِ الأضْوَاءِ الغامِضَة
والطُّقُوسِ الدِينِيَّة المُبْهَمَةِ
والمُغَامَراتِ في تَعْذيبِ النُّفُوسِ
والأجْسادِ...
حَيْثُ كُلُّ شَيءٍ هُنَاكَ مُبْهَمٌ
والكَلِمَاتُ مُبَعْثَرَةٌ
دُونَ نِقَاطٍ عَلَى الحُرُوفِ
دُونَ رِجَال تَعْشقُ
دُونَ تَفْسِيرٍ لِلأشْيَاءِ

••••

إن هذه الأسئلة من روعة الفكر الروحاني في عصرنا، والعصور السابقة منذ الأزل، لكنني لم ألتقِ بشخص يتحدث عنها أو يفكر فيها من قبل، يا لزماننا المُرْهِق والمُثْقِل بالأعْباء على كاهل كل فرد من أهل الأرض، وقد يكون هناك أهل أو بشر في أراضين أخرى لم نكتشفها بعد، وهذا واردٌ جدًا، فعدد أهل الأرض في تزايد مستمر، وربما تأتي من أراضين أخرى أرواح جديدة لعالمنا؛ على الأقل في -علم تقمص الأرواح- تنتقل أرواحنا بعد الموت إلى أجساد أخرى، وبموجب هذه النظرية لن يزداد عدد أهل الأرض أبدًا؛ لأن الإنسان الذي يموت هنا تنتقل روحه في الحال، إلى جسد آخر فيولد قبالة كل ميت طفل جديد، في مكان آخر، وأسرة جديدة، فيتربى في كنفها، ويكتسب ما يكتسب من عاداتها وتقاليدها...

لكنَّني أتساءل دائمًا، ماذا يحدث للبحر؟ من أين تأتي روحه؟ نحن نشهد التزايد وباستمرار، وكأن الأمر طبيعي بالنسبة لنا، فمن أين تأتي الأرواح الجديدة... وكيف لنا أن نكره بعضنا، أو نستغل بعضنا البعض، ما دمنا نترك كل شيء هنا، ونرتحل إلى جولة جديدة في حياة أبدية للروح في أماكن أخرى لا نهائية؟ هذه الجوهرة المعلقة بين جسد من لحم ودم، والغيبيات في بوابات السَّماء، كيف لنا أن نُدْخِلَ الحقد والكراهية والحسد، إلى قَلْبِنا الواحد الذي يجب أن يمتلئ بالمحبة والخير والتقديم والعطاء والتضحية والإيثار؟

كي لا تَتَلَوَّث روحنا الواحدة بتلك الأشياء الدنيوية الضالة، أنا أقولها أمامكم على مسامعكم وبصوت مرتفع، كأنني أستعمل أكبر مكبرات الصوت في عصرنا هذا، وأعلن: قلبي أنا لا يتسع إلا للحب... حتى لو ابتليت شر بلاء، فطوبى لمن

يبتليه رب العباد -عز وجل- بمثل هذا البلاء؛ فإنه لبلاء حسن لا محالة، وما محبتنا العُظمى إلا من أجلنا، ومن أجل يوم الآخرة... فمن لم يحب كل أهل الأرض كما هم في كل المجتمعات، على اختلاف دياناتهم وطقوسهم وعباداتهم وعاداتهم؛ سيجد نفسه خارج دوائر السعادة المُطْلَقة في محبة الرحمن -عز وجل-.

آه يا شاطئ البحر، ما أجمل أمواجكَ التي تتحدث مع صخور الجبل الأخضر، آه لو تَسْمَعُني تلكَ الأمواج المتحركة. على فكرة، يعتقد البعض أن روح الإنسان تعطيه الحركة والتنقل من مكان إلى آخر، وهي المحرك للعقل والقلب، وفي النهاية للجسد، وهذا ما يحصل مع مياه البحر، كما لو فيها روح تحركها... صحيح أنها لا تأتي لزيارتي في بيتي على جبل الكرمل، ولكنها تتحرك في مساراتها البحرية الباطنية...

تخيلوا لو يأتي البحر لزيارتي في منزلي، ماذا كان قد يحث لبلدي أو لكرملي الأخضر؟ الروح لا تخرج من الجسد إلا بعد مرور ملاك الموت، بإذنه –تعالى-، كمثل روح البحر تمامًا، لا تترك محيطها، ولكننا لا نعرف أبدًا متى تترك البحر، ربما تتبدَّل روح البحر بأرواح أخرى؛ لأنه دائم الحركة، ولا يستريح في كل الأوقات، منذ زمن الإغريق، أو منذ أزمان لا تتذكرها عقول البشر، أو لم نجد لها أي أثر في عالمنا الحالي، كل شيء في عالمنا وكوننا البديع يتحرك، ولا يوجد شيء واحد ثابت في مكانه، يا لقدرته –تعالى-.

يمكننا القول: إذا كان هذا هو حاله العادي منذ الأزل، ففي أعماق البحر تتحرك المياه دون أن نشعر بها، كما الروح البشرية، فلا يمكننا أن نلمسها، أو نضع يدنا عليها، أو نحصرها

في عضو معين من جسمنا، روح البحر تغضب من سفن الإنسان، بالرغم من أنها لا تثقل على مياه البحر بوزنها، يهيج البحر من دون سابق إنذار، وكأن روحه تتضايق من روح البشر التي فوق مياهه، تهيج أكثر عند سباحة بني البشر في مياهه، وكأن الأرواح تنغمس، تتمازج وتتماها في روح واحدة أبدية منذ الأزل... الريح روح البحر، وعندما لا تأتي الريح يهدأ البحر، ولكنَّني أقول لكم: إنَّ الريح ليست روح البحر، فالبحر يتحرك باستمرار من دون الريح، وكأنَّ قلبه ثائر لا يوقفه شيء.

لحظة، لحظة...

آه... آه...

تذكَّرت أنَّي كتبت قصيدة له، ولم أذكر فيها حتى اسمه، يا لروعتها وروعة كلماتها التي تصفه، وتتغنى به! ولا تذكر اسمه! وأنت القارئ الفطن تعرف أنَّه هو المقصود الوحيد، وها أنا أضيف لكم القصيدة ها هنا، وكأنَّ الزمن يتوقَّف عنده، ونبدأ من جديد:

## لعلَّ الزمن يتوقف عندك

يَأسرُنِي صوت موجك
وحديثك المبهم
أخافك...
وأحبك أكثر
أنت وشَّحت القصيدة
ورويت عن تاريخ الحقيقة
منذ الإغريق والرومان وآخيل
سارت إلى جانبك القوافل
وقطارات الزمن
وحملت سفن الأمس
وقوارب الصيادين
فأصبحت رزقهم المتدفق بالخير
فصارت للأمم أبطال الأساطير
وأتساءل كيف يمكننا
أن نُربي الأجيال القادمة
بدون أن تراك
بدون أن تمشي رمالك على الشاطئ...

••••

صخورك ورمالك
متعطشة مثلنا لماء المطر
للماء العذب
تكثر الكائنات فيك
المعتادة لماء الملح
نحن نحب فيك
ذاك الرذاذ المتطاير
مع عصافير الصباح
نحب فيك الرمل على الشاطئ
ونغني للهواء والشمس
ولمائك المالح...
لتغمرنا كل آهات الماضي
لعلَّ الزمن يتوقَّف عندك
ها هنا ونبدأ من جديد...

••••

إني أناديكم، أين أنتم يا أصدقاء العمر، يا أصدقاء طفولتي التي لم يتبقَ منها إلا القليل القليل من صور معلقة على أبواب الذاكرة، أين أنتِ يا صديقتي التي ما تحدثت إليها يومًا وما التقيت بها أبدًا؟ ولكنَّني أعتبرها صديقتي!

تعالوا، أنَّي أناديكم للوقوف إلى جانبي هنا، انظروا جميعكم إلى البحر؛ وسترون الهدوء والسكون، سترون السكينة في قلبه، سترون البحر الجاثم أمامي، ولكن كيف لنا أن نرى الهدوء والسكينة؟

على أي حال، ربما البحر يتحرك من أنفاسنا نحن، يقترب بموجه إلينا حينًا، ويبتعد حينًا آخر، إنه في مدٍّ وجزر أبدي، يرتفع إلى الأعلى، ويتراجع في وعائه الواحد من دون الريح، ومن دون أن تحركّه عاصفة هوجاء، هذا البحر المتحرِّك في داخل مسارب وعاء حركته، لا يدري بهذه المسارب إلا هو...!! ترتكز على روحه المتَّصلة مع باقي البحار والينابيع والأنهار، يا سبحان الخالق، كون كامل في مساحات، مساحات لا نعرف عنها إلا القليل، أو أكاد أجزم أن العلم وذكاء عقل الإنسان الحاد، لم يتعرّف إليها حتى الآن، وما نراه في العين المجردة، ونظن أنَّنا نرى كل الأعماق... العمق الذي نراه كأنَّنا نرى نصف صورة واحدة بملايين الأوصاف، ففي روح وعقل كلٍّ منا أعداد لا تنتهي لصور الأشياء، ففي زوايا الكون البديع وهندسته الخلابة، ترتبط بنا وبفكرنا ملايين الصور التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، ويعجز العقل البشري عن تذكرها وتخزينها على لوحات ذاكرته المزدحمة بعناء السنين منذ الولادة، فكيف لنا أن نكتشف هذه الأعماق، بمجرد النظر إلى سطح البحر أو بمجرد الوقوف على الشَّاطئ، بدون الغوص فيها حتَّى يتلاشى نور الشمس وضوء القمر هناك.

بدأتُ السير على الشاطئ في اتجاه الجنوب، والريح تشدُّني إلى اتجاه الشمال، يا لها من غرابة في الموضوع! أنا أريد التقدُّم إلى الجنوب في اتجاه يافا، والريح تدفعني للوراء في اتِّجاه عكَّا وسورها، ما أجملكِ يا ريح الشمال!

ولكن لماذا يسمون الشمال شمالاً؟ والجنوب جنوبًا؟ وكذلكَ كل الاتجاهات؟

ربَّما لأنَّ الشرق تشرق منه الشمس، والغرب تغرب فيه، ولكن من يعدنا ويؤكد لنا أنَّها ستشرق مجدَّدًا بعد المغيب، لا يوجد إنسان على هذه الأرض وغيرها؛ يستطيع أن يقطع على نفسه عهدًا بأنَّ الشمس ستشرق غدًا من جديد من المكان ذاته من الشرق، وقد لا نجد إنسانًا يضمن غروبها في الغرب، ومع ذلك، فَهِمْنَا لماذا سُمِّي الشرق شرقًا والغرب غربًا، كان بالإمكان أن يكون العكس تمامًا، وما يثير الأعصاب إلى درجة الدهشة! لماذا سُمِّي الشمال شمالاً والجنوب جنوبًا؟ وكيف تعمل بوصلة العقل البشري والطير والحيوان في نفس الاتجاه؟ فمن علم الطير الاتجاهات؟ ففي موسم الهجرة، تهاجر الطيور مرتين في السنة: في الربيع تهاجر إلى الشمال، وفي الخريف تعود وتهاجر إلى الجنوب، والأسباب واضحة من ناحية درجات الحرارة، وتكيُّفها كي تحمي نفسها، وفي النهاية تحمي بنات جنسها من أجل الحياة المستمرة على هذه الأرض، أما معرفتها المذهلة للطيران بموجب الاتجاهات، فإنه لأمر غريب إلى درجة التعجّب من قدرة الطير على اكتشاف مكانه وموقعه على هذه الأرض، وتحديده المذهل للاتجاهات.

والحيوان أيضًا اكتشف هذه الاتجاهات، ربما قبل الإنسان، فهاجرت مجموعات من الإبل في الصحراء من دون مرشد،

ووصلت إلى الواحات لتعيش فيها... وكذلك تهاجر الفيلة وقطعان البقر الوحشي، والبقر البري ومجموعات الأسود، دون أي مشكلة، والأسماك التي تعيش في البحار والأنهار، تهاجر أيضًا من مكان لآخر لتضع بيضها للتكاثر في مكان مناسب، ومناخ يلائمها، ثم تعود من حيث أتت...

والغريب أن صغار السلاحف البحرية، تخرج من بعد تفقيس البيض، تركض نحو البحر، وكأن البحر يناديها لتأتي إليه، كما تنادي الأم أطفالها لتعود للبيت، البحر بيت للبرمائيات والأسماك وما أوسعه من بيت، وما أجمله!

سبحانك ربي الخالق المبدع للكائنات، ومفضِّل الإنسان على غيره، والمبدع لدرجة الذهول وعدم الفهم لهذا الكون البديع المتكامل، الذي يحافظ على نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، ويتابع بناء ذاته بذاته، منذ آلاف وملايين الأعوام، سبحانك: «علَّمت الإنسان ما لا يعلم»، وهديته لسُبُلٍ في الحياة تكاد تكون شبه مستحيلة... سبحانك ربي... سبحانك يا خالق كل شيء، فما قبلك شيء وما بعدك شيء... علَّمت الكائنات كل شيء بالتواصل الغريزي، مع الحياة، بدون قلم أو كتاب أو صفحة دفتر...

••••

مرَّت ساعة وأنا أمشي على الشاطئ الرملي، وتكاد الريح تعاندني؛ لِتردَّني إلى الشمال، فقلت لها: إنِّي سأعود من حيث أتيت، ولكنَّني أمشي بهدف التمتُّع بالشاطئ، وأقوم برياضة المشي...

والحقيقة أنِّي أردت التمتُّع بعمق مساحات البحر، لأستغل هبة النظر التي وهبني إياها رب العالمين، لتسرح أفكاري، لتزيل كل الشوائب والأغطية عن عقلي الذي بات مكبَّلاً بأعباء السنين.

بدأتُ بالعودة إلى الشمال كما أرادت ريح الجنوب، دفعتني بقوَّة لأمشي مسرعًا، وكأنِّي إن لم أفعل ذلك أتأخَّر عن موعد ما، وأنا أتيت إلى هنا ولم أتَّفق مع أحد على موعد لقاء، وبين السير المسرع والركض، وجدت نفسي ألهث راكضًا وكأنَّ شيئًا ما قد حصل، وفي الواقع لم يحصل أي شيء...

وبعد عشرين دقيقة من الركض، رأت عيناي تجمعًا لعدد كبير من الأشخاص، ومعظمهم أتوا للبحر مثلي للاستجمام والسباحة أو السير على الأقدام، أذهلني وجود أشخاص كنت قد تعرَّفت إليهم من قبل، ناداني أحدهم باسمي قائلاً: «هيا تعال»... شعرت حينها أنَّ عالمي ينهار في لحظة، وكدت أقع على الأرض، ماذا حصل؟ أجبته، فقال: «هذه شابة غريقة، وأنتَ تعلمت دورة في الإسعاف الأولى فحاول تقديم المساعدة لها»... وقال آخر: «أنقذها أرجوك».. ولم أفهم سبب رجائه لي...

اقتربتُ منها، وإذ بها شابة في مقتبل العمر، غاية في الجمال الإنساني، تبهر عقل كلِّ رجل... ملقاة على رمل الشاطئ الساخن... أقفلتْ فمها وكأنَّها تمانع العناق، وهذا ما يحصل في حالات من مثل هذا القبيل...

فحصتُ نبضها وبلطف خشية إيذائها؛ فلم أشعر بشيء، فحصتُ إذا كانت تتنفس، فلم أجد أثرًا لنفسها... قال أحدهم: «لقد كانت تطلب المساعدة، دخلت للبحر، حاولت انتشالها ومساعدتها، لكن أمواج البحر قذفتها للشاطئ»...

تصارخ البعض من المجموعة: «أين سيارة الإسعاف؟»... وفهمت أنَّ سيارة الإسعاف لن تصل في القريب العاجل، وإن وصلت، فلن تصل بسبب رمل الشاطئ إلى هنا... كلُّ هذا كان في بضع ثوان قليلة جدًا...

طلبتُ من أحد الأشخاص أن يرفع قدميها عن الأرض، ليتوجَّه دم جسدها الحار إلى رأسها، فالرأس إن لم يأخذ كميَّة كافية من الأكسجين الذي في الدم يفقد العقل من ذاته، وربَّما يتضرَّر الإنسان ويُشل أو يموت...

قرَّرت وفي اللحظة ذاتها البدء بعملية التنفُّس الاصطناعي، من فمي لفمها، كي أدخل كميَّة كبيرة من الهواء إلى رئتيها عن طريق زورها؛ كي أحث زورها للشروع بالتنفُّس العادي، من دون مساعدتي، وكذلك لأدخل الهواء لرئتيها كي تستغل الأكسيجين المتبقي في الهواء الذي أدفعه لها من فمي، ولكنِّي اكتشفت أنَّ لسانها ليس في مكانه، فهمت أنَّها قد بلعته...

كان من نصيبي في مرَّة سابقة يومًا، قبل عشرات الأعوام، أنَّي أنقذت ذات مرَّة شابًا في مقتبل العمر، أُصيب بحادث على الطريق بين قريتي دالية الكرمل وعسفيا، والحمد لله -عز وجل- مكَّنني الخالق برحمته من إنقاذه، وهو اليوم رب أسرة كريمة وله زوجة وأولاد... وهكذا قد حصل في هذه المرة، فتحت فمها وبطريقة معيَّنة، ضغطت على فكِّها الأسفل،

عند مفصل اتصاله بالفك الأعلى، أدخلت أصابع يدي اليمنى بفمها، وحاولت إخراج لسانها الذي سدَّ دخول الهواء إلى القصبة الهوائية في الصدر، ووفقت في هذه المرة أيضًا، بإذنه –تعالى- من إخراج لسانها الذي سدَّ باب الهواء، وضعت يدي عليه لأنِّي لم أكن مجهَّزًا بحقيبة أدوات الإسعاف الأوَّلية، ففي مثل هذه الحالة يتوجَّب على المنقذ أن يربط اللسان بمشبك حديدي أو يستخدم آلة بلاستيكيَّة تشبه ماسورة يمرِّر من خلالها الهواء إلى الرئتين، وهكذا قد حصل... ومن ثم ضغطت وبقوَّة بكلتا يديَّ المتشابكتين، فوق مفتاح الصدر خمس مرات، كِدت أكسر ضلوع قفصها الصدري، وهذا كي يشتغل القلب والرئة من جديد، فمن يفقد النبض والتنفس وضْعه سيئ للغاية، وإن عاد للحياة تكون هذه أعجوبة من عند الله –تعالى-... وما لبثت أضغط للمرة الرابعة فوق مفتاح قلبها، حتى بدأت بالسعال، أفرغت بعده كل مياه البحر التي ابتلعتها رغمًا عنها، وتقيَّات كل الغذاء الذي كانت قد تناولته في وجبة الإفطار، بالرَّغم من هذا الوضع؛ إلا أنها لم تعد للحياة، بالرَّغم من هذا الزَّبد المتدفِّق من فمها ألقيتها على جانبها الأيسر، ومددت يدها اليسرى للأمام، ورحت أخرج كل ذلكَ الذي يخرج من فمها... وساعدتها على فتح قصبتها الهوائية؛ كي لا يبقى هناك أشياء تعيق مجال تنفسها، وحاولت -بالرغم من روائح كريهة انطلقت- إعادة التنفُّس الاصطناعي مرَّة أخرى، وضغطت فوق صدرها من جديد بيدَيَّ المتشابكتين، وفي المرة الخامسة، لاحظت أنَّ نبْضها عاد من جديد، وتأكَّدت من العروق التي تنبض في رقبتها، نظرت لصدرها، وإذ به ينتفخ وينكمش، أدركت حينها أنَّ نبْضها عاد، ونَفَسَها عاد لجسمها من جديد، وباستطاعتها التنفُّس ثانية...

وبعد بضع ثوان بدأ نبْضها يعمل في القلب، كما كان عليه قبل الحادث، وإذ بمئات المتجمهرين حولنا، يصفِّقون ويصرخون كل الاحترام لكَ كل الاحترام... بلغات مختلفة، فهمت بعضها والبعض الآخر لم أفهمه، وكان هناك رجل وامرأة، جلسا قريبًا جدًا من الشابة يبكيان، وبعد قليل ضمَّا الشابة وراحوا يبكون جميعهم، وقالوا لي باللغة العربية ما معناه: شكرًا جزيلاً لكَ من القلب، فقد أنقذت حياتنا جميعًا، فهمت فيما بعد أنَّهما كانا والديْ الشابة، دهشت للغتهما العربية... فقال لي والدها أنَّه عربي من العرب الباقين في مدينة حيفا، نعم أنا عربي من مدينة حيفا، لقد أنقذت ابنتي، وأنا مدين لكَ طيلة أيام حياتي...

يا لنبل هذا الإنسان الطيب الرائع، كان بإمكانه شكري وكفى، ولكنَّه أصر أن يعرض عليَّ مساعداته، وأن يؤكد لي أنه مدين لي، حقًا كما قال: «طيلة أيام حياته»، سألت نفسي: لماذا؟ وما قمت به اليوم مع ابنته، قمت به عشرات المرات مع أشخاص آخرين، في أماكن مختلفة في البلاد، وأحيانًا كانت حالة المصاب أصعب بكثير، ولم يصبح أحدهم مدينًا لي طيلة أيام حياته! يا لنبل هذا الإنسان الرائع...!

ودَّعته وودعت الشابة ووالدتها بقولي الحمد لله –تعالى- على سلامتها، وكانت الصيحات مستمرة من الجميع: «كل الاحترام؛ أنقذت حياتها، شكرًا لكَ».

سِرتُ وابتعدت بضع عشرات من الأمتار، وما زالت المجموعة تهتف بالكلمات ذاتها، وهم لا يعلمون قصتي مع ريح الجنوب التي هدأت حين وصولي إلى مكان الحادث، ريح الجنوب التي دفعتني لأركض وأسرع في سيري؛ كي آتي

لموقع الحادث؛ كي أحاول مساعدة الشابة وربما إنقاذها...

هل تعلم ريح الجنوب بالحادث؟ أم هي قدرة ربانيَّة تحرَّكت؛ كي أصل في الوقت المناسب، وأقدِّم ما قد تعلَّمت في دورة الإسعاف الأولية مستخدمًا كل تجربتي على أرض الواقع، محاولاً مساعدتها، وربما إنقاذ الشابَّة؟... يُخَيَّلُ إليَّ أن مهمَّة إنقاذها كان يجب أن تكون على يديَّ، كما فرضت القوانين الربانيَّة علينا.

تعرَّفتُ في مكان الحادث على بعض الأشخاص الذين كانوا معي في عمل سابق، وقد تعلموا الدورة ذاتها، يا للغرابة في الأمر! لماذا لم يقم أحدهم بتقديم المساعدة للشابة؟

ملايين الأسئلة تُطرح في آنٍ واحد، كأن عقلي الجديد غير المستعمل يطرح وبكثافة وازدحام أسئلة بلا نهاية، فطلبتُ منه أن يتوقف عن هذه العملية: عملية المُساءلة، فلا يوجد عندي أجوبة لكل هذا الكم الهائل من أسئلته، وكلما اقتربت من سيارتي، وابتعدت عن مكان الحادث، فتح لي هذا العقل أبوابًا جديدة في الفلسفة والروحانية والفكر، وما أدراني أنا بكل هذه الأسئلة وأجوبتها؟ فأنا إنسان بسيط جدًا ليس له ولا عليه أي أمر سوى أنه إنسان... من أين يجب أن أعلم بكل هذه الإجابات لأسئلة غير منتهية من عقل عبقري لا يفهم ظروفي في الكثير من الحالات؟ ولا يقدرها بالشكل الصحيح، أنا يا عقلي المتسائل، لا أعرف من الكم الهائل من هذه الأسئلة إلا القليل من الإجابات، نعم بكل تواضع القليل القليل من الإجابات.

أخيرًا، وبرغم الأسئلة، استطعت أن أصل سيارتي، ووقفت أتأمل من جديد، فراحت تخطر ببالي كلماتي التي ما زالت

تراودني منذ الصباح: «لماذا ولدت هنا؟... وماذا كان سيحدث لو لم آتي إلى هذا المكان؟»... فوصلت لنتائج غير مرضية: أنَّنا بني البشر على هذه الأرض مسيَّرون، وكل ما حدث وما سيحدث له سبب في علم الغيب لا نعرفه، ولا ندركه أبدًا إلا ساعة حدوثه، أمر محيِّر للغاية ويُتعِبُ العقل البشري الذي يفكر فيه، وكأنَّ الروح تخرج من مسارها، حتى من الجسد الذي سُجِنَتْ فيه منذ الولادة... نشعر أحيانًا أننا مسحوقون بداخلنا، مذبوحون، مجروحة أرواحنا، نريد أن نخرج من هذا الجسم المُسمَّى لحمًا ودمًا، ولكنَّنا لا نستطع... حتى آخر لحظة في حياتنا، حتى الموت، لكن لماذا؟

••••

كتبت في إحدى كلماتي ذات مرة، عن عمل واجتهاد الإنسان في الحياة، وكيف يؤثر فيها وبشكل مباشر على نفسه وعلى من حوله، كتبت هذه الكلمات وأرسلتها لمئات المشايخ الأفاضل، والشباب وطلاب المدارس والجامعات في قريتي وغيرها، كتبت:

أشعر أحيانًا أني إنسان من عصر آخر، أحاول الوقوف في وجه التيار الجارف في مجتمعي وغيره من مجتمعات أهل الأرض... فأصمد، لكنَّ التيار لن ينهيني! فكل تيارات العالم، وهذا التيار الجارف، لن تمحو اسمي عن رمال الصحراء ومياه البحر...

وأتابع في كتابتي وأقول:

لا تُقاس حياة الإنسان بعَدَد السنين منذ الولادة وحتى

الموت، وأنَّما بما يستطيع الإنسان أن يبني ويُجَسِّد داخل هذه السنين، فهناكَ من يعيش عمرًا كاملاً، وكأنَّه لم يعش، وهناكَ من يعيش بضع عشرات من السنين والإنسانيَّة بأسرها لا تَفيه حقَّه، وتبقى مدينة له أبد الدهر، لما جسَّده وبناه في حياته، بما فيه مصلحة وفائدة لكل المجتمعات، هذه الحياة التي أريدها لكل بني البشر، لعلنا نتحرَّر من قيودنا العقلية القديمة، ونتخلَّى عن التمسُّك بالسَّراب في مجتمع يمدُّه الفكر الفطري للوراء بكل شيء...

فعجبًا أقول:

إن كل شعوب العالم وأممه يفكِّرون بطريقة ما، تأخذهم إلى الأمام... ومجتمعنا العربي الذي جَسَّد وبنى، بإذنه –تعالى- طبعًا، عقلية جديدة وفكرًا جديدًا في العالم، كنبراس جديد للفلسفة الروحانية والعلم والثقافة والفقه، يفكِّر اليوم للوراء! لو جعلنا الشيء الفلاني مكان الشيء هذا، لكان اليوم وضعنا أفضل... وتدور النقاشات على الساحات، وفي كل مكان: لو، ولو، ولو... وبعدها مائة لو.. ويا ليت، ويا ويا ويا... ليت ليت وليت وليت، هذا ما نفكر به وَحَسْب، وأنَّما نحن لا ندري أنَّنا نائمو التفكير، وعقلنا مشلول القدرة على التفكير، ونحن دائمو الفكر والتقدم للماضي، ونتحدث عنه وكأنَّه الحاضر والمستقبل، ما أسهل الكلام عندنا عن ذاك العصر الذي لم نعشه أبدًا، ولم نكن فيه لحظة واحدة، حتى أنَّنا لم نمر بجانب تلك الفترة أو شخصياتها للحظات، فبات الحديث عن تلك الشخصيات التي تركت بصمات على صفحات التاريخ، وما أكثر الاعتزاز بها، وبإنجازاتها وكأنَّها هي المستقبل، وعلينا أن نعيده لأنَّه الأفضل لنا وللأمة العربية، وهل الزمان يعود

للوراء؟ دائمًا نتقدَّم بتفكيرنا وللأسف العميق للوراء، للوراء، للوراء... حتى توارى عنا هذا الوراء إلى حيث لا رجعة من الزمن الغابر، ولن يعود حتى لو استرحمناه –تعالى- ليل نهار، لمائة عام مقبلة علينا، فالسنون التي مرَّت لن تعود، والزمن لا يرجع للوراء، ووحده –تعالى- يستطيع تغيير التاريخ، والزمن والوقت، وأخْذَنا إلى كلّ نقطة زمنيَّة ممكنة، وكلِّ مكان ممكن وبلحظات، وحده يمكنه تغيير العالم والزمن الحالي بزمن آخر وبإرادته –تعالى- كل شيء قابل للتغيير والتنفيذ، لكنَّه تعالى -على ما يبدو- لا يريد أن نرجع لتلك الأيام، ويريدنا العيش ها هنا، في هذا الحاضر لبناء المستقبل، وتلك الأيام الماضية، تبقى ذكريات وقصصًا جميلة من تاريخ مرَّ، ولن يعود أبد الدهر.

••••

قُدت سيارتي عائدًا إلى منزلي، لم أستطع أن ألغي من فكري ذلكَ المنظر للشابَّة وهي ملقاة على رمل الشاطئ الساخن، ربما لم تعرف السباحة! لُمْتُ نفسي كثيرًا كيف تركتهم، وذهبت مسرعًا لسيارتي، كان عليَّ تقديم النصائح لها ولأهلها، وخاصَّة والدها القلق الباكي، فلو تأخَّرت لدقائق أخرى في سيري ربما كان قد فقدها...

آه كم أنا مذنب، كان عليَّ أن أنصحهم بتعليم ابنتهم السباحة قبل نزولها للبحر، لكني لم أنتبه، كان عليَّ أن أقدِّم لهم النصائح في تلك الأثناء الصعبة، لشدَّة الفوضى هناك في المكان... حتى أني لم أنتبه أن آخذ عنوانهم للاتصال بهم فيما بعد، على أي حال، آمل أن يرشدهم أحد الأشخاص

الذين كانوا هناك لحل مثل هذه المشكلة البسيطة... مشكلة بسيطة كادت ابنتهم تموت بسببها، فكيف لي أن أقول مشكلة بسيطة؟

ولكن لماذا أفكِّر بهم إلى هذا الحد؟ فأنا لا أدري... قدمتُ واجبي تجاههم، وهذا يكفي، فالمسؤوليَّة تقع على عاتق أهلها وعاتقها هي، ولكن في سنِّها لا تعرف السباحة، ربما هناك مشكلات أخرى لا نعرفها، ربما أرادت الشابَّة دخول البحر إلى المياه العميقة محاولة ترك هذه الحياة! لا! لا يجوز لي أن أشكِّك بها، وأقول دخلت بقصد الانتحار! الانتحار! ربما امتزجت روحها بروح البحر، كما ذكرت، فباتت المسكينة من غير روح حتى باشرت في إنقاذها، فردَّ الله -عز وجل- من البحر الروح إليها، هذا ما يمكن فهمه بعد التفكير بعمق شديد، لقد لاحظت بعد أن قدَّمت للشابة المساعدة، أنَّ موج البحر بدأ يرتفع غاضبًا إلى الشاطئ، ويلتطم وبشدة بصخور الجبل، وفي طريقي إلى سيارتي سمعت صوت أمواج البحر ترتفع، وكأنَّه يعاتبني ويلومني، وشعرت أن بعض الأمواج وصلت إلى الشاطئ، وكأنَّها تعترض طريقي، ربَّما غضب البحر مني لتقديمي المساعدة للفتاة...

آه يا بحر يا أزرق! مني قد تغضب! لكني أعدكَ أن لا أدخل مياهكَ حتى العام ٢٠١٤ إن عشتُ حتى ذلكَ العام... كي لا تغدر بي! وربما حتى ذلك الحين تكون قد نسيت الحادثة، وما قد حدث مع الشابة الجميلة.

••••

ركنت سيارتي على قارعة الطريق في مرتفعات جبل الكرمل الأخضر، وبسرعة البرق خرجت منها، ورحت أتأمَّل غروب الشمس...

تذكرت أنَّ من عادات الفراعنة القدماء كانت عادة سيئة في مصر القديمة، يقدِّم فيها الفرعون القرابين لبحر النيل، وهذا ما كان متعارفًا عليه، نعم بحر النيل الذي هو نهر النيل المعروف لنا في أيامنا، والقربان الذي يقدمه الفرعون عن طريق كهنة المعبد، بطقوس كانت متبعة في حينه، ليس إلا أجمل فتاة في مصر، يقوم كاهن المعبد بربط يدي الفتاة وقدميها، ويلقي بها في بحر النيل؛ كي يرضي هذا البحر الهائج عليهم، ويرسل لهم الخيرات من جوفه بدل الهيجان والفيضان، فيضان نهر النيل يعني لهم تدميرًا شاملاً لمنازل الطين التي يبنيها سكان القرى بمحاذاة مجرى مياهه، كبيوت لهم، ويوم يفيض نهر النيل لا يبقى من تلك القرى أي أثر... وببساطة القربان والذي هو أجمل فتاة في مصر القديمة، قد يرضى نهر النيل فيعدل عن الفيضان، ولا تدمر المملكة ولا منازل القرويين والفقراء، ببساطة في أعرافهم عملية التضحية بهذه الفتاة الجميلة تمنع فيضان نهر النيل...

كانت تلكَ العادة تقام في بداية فصل الصيف في طقوس دينية خاصة لتلك الفترة... نعم خاصة بأهل مصر، والآن يراودني الشك بأنَّ البحر أراد تلك الفتاة الجميلة، كقربان له ليتوقَّف عن الهيجان، كي لا يغضب، ولا يبتلع السفن، ولا يفيض من مساراته فيُغرق أراضيَ، ويبتلع أناسًا لا يريدهم له، إنَّما يريد أخْذ تلك الفتاة فائقة الجمال عوضًا عنهم جميعًا...

خطر ببالي مقالة كتبتها منذ خمسة عشر عامًا، كتبت مقالة

بعنوان: «عالمنا في خطر»:

نعم يا أيُّها السادة عالمنا في خطر... عالمنا في خطر! القوانين الكونيَّة تتغيَّر من صنيعة يد الإنسان، ومن دون استئذان، كوننا البديع لن يقف مكتوف الأيدي إزاء ما يقوم به الإنسان على هذه الأرض، وسيطلق العنان لقوانينه الجديدة، وسيفرضها على الإنسان والإنسانية دون أي إنذار مسبق...

عالمنا يا أيُّها الإخوة والأخوات في خطر، ولنا مستقبل هنا، وعلينا أن نحميه... فكيف السبيل لذلك الأمر الذي بات الأكثر أهمية لاستمرار بقاء الجنس البشري على هذه الأرض، تأمَّلوا لحظة بما يجول حولنا، السيارات بالملايين تطلق الحرارة يوميًا، وتساهم في الحرارة الإضافية للغلاف الجوي للكرة الأرضية، ملايين المفاعل والمصانع والآلات التي تعمل ليل نهار بالوقود، هي أيضًا تشارك في هذه الحرارة الزائدة، المناجم التي يحفرها الإنسان لاستخراج الذهب والنحاس والبترول، والمعادن الأخرى، تُحدِث انهيارات وتصدعات في الكرة الأرضية، وباطنها الملتهب يُطلق الحرارة والغازات عبر البراكين للغلاف الجوي، التجارب النووية والحروب كلها سبب في إضافة الحرارة داخل الغلاف الجوي للأرض، وكلها تحرق الأكسيجين، وتوسع في ثقب الأوزون الآخذ بالاتساع... صيد وقتل الحيوانات والطيور، في كل جنبات الأرض نار وحرائق في الغابات، تستمر لسنوات كما في غابات دولة كندا وأستراليا التي استمرت بالاشتعال لسنوات، وحريق الكرمل الأخضر، والذي آثاره ما زالت ظاهرة أمام عيني ها هنا، وبهذه الأعمال وأخرى كثيرة لا نعرفها، ولم يتم الإعلان عنها حتى الآن، فبعض الدول تعتبرها سرية للغاية، اختل التوازن

الكوني، كيف للكون إذن، أن يقف مكتوف الأيدي إزاء هذه المادة الحرارية المتقلِّبة، وصنيعة يد الإنسان في كل شيء، فللكون الحق بفرض قوانين جديدة تخصه، للمحافظة على التوازن الكوني الذي يؤثر وبصورة مباشرة، على التوازن في عالمنا، كوننا البديع هذا لن نستطيع تغيير أي شيء فيه، ولن نستطيع تسييره كما نرغب نحن بني البشر، نحن الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة، قبالة عظمته –تعالى-، فيما أنجز وأبدع، الطبيعة الكونيَّة تحمي نفسها بنفسها، لن نصمد أمام هذه القَوْنَنة الكونيَّة الجديدة، ولربما يندثر الجنس البشري من هذا العالم، وينقضي نحْبه إلى حيث لا رجعة، وكل هذا سيحدث بإذنه –تعالى- فقط، رب العباد وخالق الكون الذي لا يتحرك فيه أي شيء إلا بإذنه وإرادته، هو الحي القيوم مالك الملك، له الرجوع والبعث والنشور، أدعوه ليحفظنا بالخير قبل فوات الأوان، إنَّه لسميع رحيم مجيب.

••••

قصتي يا صديقتي التي ما التقيتُ بها من قبل، وما تحدثت معها منذ الأزل، لم تبدأ هنا، لم تبدأ بعد ولم تنتهِ، لكنَّها استمرارًا لأحداث ممتدَّة منذ أكثر من مليون عام... أحداث طويلة جدًا يطول شرحها، منذ ولدت في المرة الأولى وحتى هذه الساعة... تحيِّرني وتحيِّر عقلي أسئلة كثيرة في عالم الإنسان والإنسانيَّة، والتعامل بينهما، حالات وجدانيَّة ومشاعر مختلطة، شعور بالود أحيانًا، وبالبُعد والجفاء أحيانًا أخرى، حالة إنسانيَّة بشريَّة محض، تبكيني وتبكي كل من حمل في قلبه وروحه وعقله، المحبة ونوايا الخير

لكل أهل الأرض، القائل إنسان، والمنفذ إنسان، ومُنصِّب نفسه وشخصه الكريم إنسان، كيف لأخ في الإنسانية، أن يُنَصِّب نفسه وليًّا على رقاب عباد الله –تعالى-، نعم ينصب نفسه وليًّا على رقاب بني البشر، وهو أدنى منهم بكثير بكل المقوِّمات والصفات الإنسانيَّة، الفكر والمحبَّة والتضحية والعطاء وعمل الخير والإيثار، إلى آخره... مع أنَّني لم أعتمد الطبقيَّة في مجتمعي قط، وفي كل مجتمعات أهل الأرض الأخرى أيضًا، وأقف ضد الطبقيَّة الفكريَّة والتمييز العنصري بين بني البشر، لكنِّي أَحْكم على التصرفات غير الواعدة وغير المبشِّرة بالخير للمجتمع، وخاصة الذي أنتمي إليهم، حتى أنِّي كتبت يومًا: «الشبل الجبان والولد العاق كالبوم لا يبشران إلا بالخراب»، ظننت يومًا وهذا النوع منا كبني البشر نادر الوجود، ولكنَّني التقيتُ بأمثاله بالمئات، وكل بيت في بلدي أو سائر بلدان المعمورة، وإن تعدَّدت الجنسيَّات واللغات، فيه نمط محيِّر مثل هذا النوع الخبيث الطمَّاع الجشع البشع المتخاذل الذي يحاول جاهدًا فرْض نفسه على المجتمع، محاولاً القول: إنَّه الأفضل، وإنَّه الأستاذ والمعلم، وإنَّه صاحب الحكمة والتجربة، وهو المرشد والموجه... ولكن المجتمع بأسره سرعان ما يكتشفه، ويَتَعرَّف بنواياه ومقاصده، ويبعده عن مركز الصورة والأحداث وسواقي الماء العذب، ليجلسه بجانب أصدقائه في الخبث واللؤم والحسد والكراهية والشر... فنوع من هذا البشر المتدني في طبعه، لا يخطو خطوة واحدة خارج حدود بيئته، إلا وخرب في كل خطوة عشرات البيوت، مقنعًا نفسه أنَّه قادر على السيطرة على الآخرين، والجلوس في الصف الأول في كل مكان، ولشدَّة نعته لشخصه الكريم، وإعجابه بعمله النتن... تظهر على وجهه علامات بارزة، حتى

عقلي المتحيِّر دائمًا يلاحظها، هذه العلامات نراها في بعض الحيوانات الشرسة المفترسة، التي تعيش لتفترس من أجل الافتراس، ولا تفترس من أجل العيش وقضاء حاجتها في الحياة وصراع البقاء...

هذا النوع من البشر يشابه في طبعه حيوان الضبع، وخاصة الذكر الذي يفترس أبناءه بدون رحمة أو خجل من أنثاه، وهي تضعف في حماية صغارها، والضبع الذكر يحمل من صفات التجوُّل في الليل كالخفاش، ويعطي كل صفاته البشعة التي ما إن قورنت بصفات الذئب أو الأسد لسقطت في حضيض مستنقع نتن مليء بالخبث واللؤم والجشع... وهكذا ذاك الحيوان الإنسان الذي لم يأخذ من الجينات من والديه إلا الشكل والمظهر الخارجي فقط، يحتضن في داخل روحه وقلبه وعقله، وكل جزء من جسمه، كل صفات الضبع الذي يخون حتى أسرته القريبة، بسبب جشع فكره وقساوة قلبه وروحه النتنة... فلماذا خُلق هذا الكائن الحي الكريه؟ وهناك مخلوقات حية أخرى، نتساءل دائمًا عن سبب وجودها في عالمنا، كالأفعى والبعوضة والتمساح والخنزير. إن لله – سبحانه- الخالق الباري –تعالى- في خلقه هذا الكون المتكامل شؤونًا، وجب التصديق والإيمان به في كل شيء، لكلٍّ منهم وظيفته، ولا يحق لنا التدخُّل في إرادته –تعالى-.

نعود لذلك البشري الحاقد، وكان أفضل بكثير لو وضعناه ليعيش في قطيع من الضباع؛ لأنَّه يتمتَّع باندفاع بالغ بصفات الضبع السيئة، لا يعرف الحب ولا الرحمة، ولا الشفقة ولا العدل والإنصاف، يضغط بفكيه الفاتكتين على كل شيء ليأخذه لنفسه حتى لو كان مِلْكًا للآخرين، وإن

فشل يصبح أكثر شراسة، مستعملاً كل السُّبل المشروعة وغير المشروعة، وكأنَّه في ساحة معركة وقتال، لا يسمح لعدوِّه ولا يمنحه حتى أدنى فرصة في الانتصار أو النجاح في النجاة، بأبسط الأمور أن يتركه هكذا ليعيش بطريقة تلقائيَّة، من دون أي مساعدة منه، لكن نتانة روحه والقسوة التي تملَّكت قلبه والخبث الذي سيطر على عقله، يحاول ويحاول الانقضاض عليه، أو على فريسة جديدة؛ كي لا تنتهي عنده أو تفوته شهوة الافتراس، التي بلغت ذروتها كل الوقت، وهي تعادل لهفة حب الأخْذ للنفس غير الشَّبِعَة أبدًا، بالرغم من أنَّه أكل وشبع، ويكاد لا يستطيع الحِراك من فريسة لأخرى، وقد نهش جسدها، وطحن عظامها، وابتلع لحمها تمامًا، إلا أنَّ رغبة الانقضاض على فريسة جديدة، وشهوة الافتراس تشدُّه للقيام بهذا العمل المرة تلو الأخرى، بدون أخذ قسط من الراحة، أو الاكتراث لمعاناة وعذاب فريسته...

للأسف الشديد الذي أعرب عنه في كل مناسبة، أو حتى بدون مناسبة، هناك الكثيرون من بني جنسنا البشري، الذين يتمتَّعون بمثل هذه الصفات غير المألوفة لمجتمع الآدميين منا... البشر لا تتفاضل بألوانها وطرق عبادتها، وإنَّما بنقاء أرواحها وطيبة قلوبها وحُسْن تفكيرها وصالح أعمالها... فأين هم أولئك البشر، الذين يتمتعون بصفات الذكر في قطعان الضباع، من الإنسانية والبشرية والحضارات التي عاصرها البشر منذ الأزل؟ فهم ضبع ذكر في صورة إنسان.

على فكرة: كيف لنا أن نصف من هم في هذا المستوى من الحقد والحسد والخبث والكراهية وتقديم الضرر للآخرين بالبشر! كان الأجدر بنا أن «ننادي الولد باسمهِ»، لعل من

يسمعنا يحاول إمَّا الابتعاد عن هذا النوع من البشر، حتى يُصحِّح ويُخَلص نفسه وكنه ذاته، وإمَّا لا يتراجع فيتابع السير في الضلال، وبدون الالتفات إلى الوراء، ليُقَيِّم كل تصرفاته.. وعندها على الأقل نَحْذَرُهُ ونبتعد عنه...

هنا ندخل بابًا يكاد يكون ممنوعًا، باب تصنيف البشر... كيف لنا كبني البشر أن نقيِّم بعضنا البعض؟ وبموجب أي مقياس أو مكيال؟ عجبًا! إنها معضلة عامة بشريَّة لا يخوض بها إلا من يحمل عقلاً متحيِّرا دائم التفكير والحيرة مثلي، وهذه المعضلة يجب أن توضع على موائد كل بني البشر، ومجتمعات أهل الأرض، كقضية للبحث، لوضع المعايير والمقاييس والسُّبل التي يجب أن نقيِّم صفات إنسان صالح، أو إنسان له صفات ضَبْعِيَّة لئيمة خبيثة...

آه... حقًا هناك تقييم منطقي بموجب القانون المدني والأحوال المدنية والتي بموجبها باستطاعتنا أن ننفذ أحكامًا على الذين يتصرَّفون كالضباع، شرط أن تتوفر البراهين والأدلة بأنَّ الشخص ذاته قام بعمل مخالفات للقانون.

وطالما نتحدَّث عن هذه القضية المطروحة للبحث، فلماذا نحن بني البشر لا نتميَّز جميعًا بالأمور الإيجابية؟ فالتميُّز هو أن تتفوَّق على الآخرين من بني جنسنا البشري بقدراتك العقلانية الفذَّة وعملك الصالح المقبول على أكثريَّة المجموعة في خدمتهم، والتقديم لهم والإيثار عليهم، والتضحية في سبيل إسعادهم... مُتقيدًا بالعدل بينهما والرحمة والإنصاف في اتخاذ القرارات...

ولكن حذارِ أن يدفعك هذا التميُّز للتكبُّر والتجبُّر واحتقار الآخرين، فما هي إلا لحظات حتى يكتشف الناس ما انطوت عليه نفسك، ويبتعدون عنك جميعًا، من دون سابق إنذار.

ما أسعدني، الأمور تترتب كما يجب، ولكن كيف يتصرَّف هذا القانون ويعاقب أحدهم ما لم نكتشف تلك التصرُّفات والنوايا المخالفة للقانون؟ أو كيف نكتشف من قام بهذه الأعمال سرًا؟

بصراحة، القضية معقَّدة وشائكة جدًا، أو بدأت تتعقَّد أكثر فأكثر، وأنا أريد أن أضع قوانين جديدة؛ كي لا يسود قانون الغاب في مجتمعنا البشري الإنساني، مع العلم أنَّ قانون الغاب نعرفه جيدًا، فالحياة فيه للأقوى في ذروة صراع البقاء، وهذا غير صحيح؛ فالأسود أقوى من الضباع، ومع ذلك، لا تفترس كل الوقت، وإنَّما تفترس لشدَّة جوعها، ولو توفَّر لها غذاء آخر لما افترست أبدًا... وكذلك الذئاب لا تفترس إلا لتأكل، وتمنح الأسود والذئاب للفريسة إمكانية الهرب والاختباء، لكن الضبع يفترس كل حيوان يُصادفه في طريقه، حتى لو كانت معدته منتفخة من شدة الشبع، وهذه الفوارق بين الأسود والضباع، وتصرُّفات الأسود بالرَّغم من أنَّها تفترس وتلتهم فريستها، إلا أنَّها أكثر حضارة في تصرفاتها من الضباع... الأُسد تلفت انتباه الجميع بالرغم من قلَّتها، والضباع لا تلفت انتباه أحد بالرغم من كثرتها، ففساد الضباع يبعد كل الكائنات الحيَّة عنها...

وهكذا حالنا كبني البشر، ضبع يكذب، وآخر يفسد الأمور الصالحة، وثالث يخرِّب البيوت العامرة، ورابع بارع في نقل النميمة بين الناس، وأفراد المجتمع الواحد، وخامس وسادس.

لكلٍّ وظيفته في هذا الكون الكامل المتكامل... فكيف لنا أن نحافظ على توازن بشري في هذا الكون الجميل الرائع، الذي يكاد يكون متكاملاً لا ينقصه إلا النقص... فلو تَلَوَّى هذا الكون وتعب في الإنجاب، فلن يتمخَّض عنه إلا الخير

والسعة للآخر ورحابة الصدر، والتسامح والصبر علينا كبني البشر، فالمساحات الواسعة على سطح الكرة الأرضيَّة، والتي قد تكون منبسطة لحد ما تتَّسع لمليارات الأعداد البشريَّة، وأعداد الحيوانات التي لا تعد ولا تحصى من اليرقات وحتى الفيلة، مرورًا بكل أنواع الطيور والأسماك في البحار والمحيطات... فالتوازن لا يختل بين الأعداد الهائلة؛ لأنَّه نسبيٌّ في العدد والتعداد، والنقص الناقص في كوننا ليس إلا لحكمة في خلقه -تعالى- ليُعلِّمنا ويشد عقلنا المُغطى بأغشية خميلة وثقيلة، للتفكير في كل القضايا التي لم تحدَّد في قواعد فيزيائيَّة واضحة بعد، لتخترق مدار الفِكْر والعقلانية البشرية، لإيجاد النظريَّات المناسبة، لتصبح مفهومة مبسَّطة للعقل البشري النائم في رؤوسنا، أو المتواجد في سبات وجمود من أمره، من ذاته لذاته فقط.

أحمد الله -تعالى- يوميًا ملايين المرَّات على أن عقلي يفكِّر، وهذا إثبات لي أنا بأنَّ عقلي ليس في سبات وجمود، بالرغم من أنه متحيِّر دائم التردُّد، إلا أنَّه يطرح علي الكثير من الأسئلة الصعبة المحيِّرة، وهذا يجهدني في إيجاد الإجابات لها. فالحمد لله -تعالى- على ما أعطاني من هبة العقل، فالعقل أولاً، والفكر والتفكير الدائم في مجريات الأمور حولي ثانيًا، وثالثًا.

آه... تعبت من التفكير، سأنام للحظات، وأعود لمتابعة الكتابة، نعم؛ فأنا أدوِّن كل شيء؛ لأن عقلي لا يتذكَّر كل الأمور التي أتحدث عنها، وخوفًا من أن أقع في خطأ ما، قرَّرت منذ عشرة أعوام أن أدوِّن كلَّ شيء، حديثي مع الناس، عملي، تفكيري، أسئلة عقلي الثرثار الكثيرة... وهكذا يمكنني تقييم

نفسي بموجب مكيال أضعه لي أنا خاصة، وأكتشف إذا كنت إنسانًا طيبًا يتمتَّع بصفات الأسود وصفات الذئاب، أم إنسانًا يتمتع بصفات ضبعية كنت قد سردتها لكم سابقًا، لكنني أريد إخبار صديقتي التي ما تحدثت معها يومًا والتي ما التقيتها منذ البداية، أن عقلي شديد التفكير، وحتى في نومي العميق أفكر، هذا العقل الذي منحني إيَّاه ربي يفكر، يحلم بالأمور الطيبة، والتضحية، وتقديم المساعدة للآخرين، واستيعاب كل شيء من الآخرين... حتى لو كان بالغ الإساءة لي شخصيًا، فما نفع أن أنام يا صديقتي وعقلي مستمر التفكير؟ يفكر في ظلم بني البشر للكائنات الحية، ونحن نتعقبهم ونرصد حركاتهم، نضايقهم؛ لأنَّنا نريدهم لأنفسنا، حتى بلغت بنا الوقاحة باتهام الذئب بدم سيدنا يوسف ابن سيدنا يعقوب (عليهما السلام)، ولم يرمش لنا جفن، حاربناه، ووجهنا له الإساءة دائمًا، وهو بارٌّ بوالديه ويحسن معاملتهما في كبرهما، يرعاهما ولا يرميهما في التهلكة، يحافظ على إطار أسري، من زوجة وجراء، الذئب، نعم، الذئب الذكر لا يخون زوجته وحتى بعد وفاتها يبقى وحيدًا إلى أن يلقى أجله المحتوم، كل هذه الحسنات ونحن بني البشر اتهمناه ونعتناه بالصفات البشعة، هذا الحيوان الذي لا ذنب له بأي شيء! فراح عقلي يفكر بطريقة ما: كيف يجب علينا الاعتذار منه؟

وأنا لم أفهم هذا العقل المتحيِّر، فدعوت الله –تعالى- بالخير، وطلبت منه -أن لا يحيِّر أحدًا- لأنَّها حالة تثير الكثير من المشاعر والتشكُّك في الأمور، ونحن بني البشر لا نحتمل الحيرة، ولا الانتظار والتشكُّك، ففي نفوسنا شيء ما يدفعنا للنيل من الحقيقة ورؤيتها شفَّافة واضحة، وهذا طبعًا لا يشمل كل بني البشر؛ لأنَّنا في نظرية الفكر والروحانيَّة،

وعقلانيَّة الذات، نحن لسنا متساوين، وإنَّما التفاوت بما بيننا يجعلنا نقف في مستويات مختلفة، من ثقافة الذات والخصوصية، وقد ندخل هذا الباب فيما بعد يا صديقتي، فأنا أشعر بأنك مرتبكة جدًا لا تفهمينني، وأرى ملامح وجهك الحسن، تعبر عما يجيش في قلبك، الممتلئ بالخير والمحبة والسعادة، فكتبت للذئب البارِّ بوالديه، قبل عامين أو أكثر، هذه القصيدة، معبِّرًا فيها عن اعتذارنا منه باسم البشرية جمعاء:

# قصيدة اعتذار من الذئب

َآسف صديقي الذئب...
على كل ما نسب إليك
من اتهاماتٍ في ذنوب البشر
منذ زمن بعيد اتهمناك بدم سيدنا يوسف -عليه السلام-
تعلمنا من أهلنا أنَّك مفترسٌ مخادع قاتل...
لكن الله -عز وجل- يُيَسِّر لك طعامك
فمن السماء تسقط إليك الحقائب والمطالب...
في صغري وصفتك بكلماتي بالشرس
لكنك لا تعتدي
أنت كمثل جندي أصيل تحارب...

••••

أنت شهمٌ أبيٌّ كأنَّك ليث
إن لم يؤلمه جوع لا يفترس
مرت سنون العمر وظلمناك بتُهم
وكأنَّ بي الظلم لا يُسْتَرد
عرفتك يا ابن آوي في كهف حَميتك
وكنت خير جليس في نيته ودٌّ
آه لو تحدثت عن شاة تائهة
وماعز ليس لك فيها مطلب
آه لو تحدثت عن إخوة يوسف -عليه السلام-
كيف جاروا عليكم بالكذب...

••••

آسف صديقي الذئب
كنتُ صغيرًا ولم أعلم
كم من الوفاء والشجاعة
تحتضن بقلبك
يتراكض البشر خوفًا، يقتلونك
وأنت شريف على أسرتِكَ تُحافظ
يا ليتنا نَتَعَلَّمُ منك البِرَّ بالوالدين
والوفاء لزوجاتنا...
وكيف عن أولادنا والضعيف ندافع
اتهمناك بدماء البشر
وأنت بريء من دم ابن سيدنا يعقوب -عليه السلام-
وأطفال ضاعوا في عتمة الليل
بغابات الرحيل
أنت شهمٌ كأسدٍ كاسر
إن لم يعتدوا عليه
لا يُخرج أظافر الموت للأعداء ولا يعاقب
آسف صديقي الذئب
رفعنا عنك ظلم الأولين
وفساد الآخِرين
وقلنا أنت عن الحق والمظلوم دومًا تُدافع
ومع أسرتك بالوفاء تحيا
وبها لا تجازف
فكيف لنا نحن بني البشر
أن نتعلم منك صفات الموحِّدين

وصفات العالم العلوي
كي نرتقي للأعالي كالطائر
أنت تمزِّق جسد فريستك
وتنهش الأحشاء من جوعك برحمة
ولا تنهش كالجبناء الفاسدين الكاذبين
أجساد الإنس عن شبع
أنت لا تأكل الجيف ولاً الميتة
وعلى مبادئك تحافظ ولأجلها تقاوم
أنت لا تفترس عند شبعك
وتصرف وجهك عن قطعاننا
وعن كل مارق...
آسف صديقي البار بوالديه
الوفي لزوجته وعن أسرته يدافع...

••••

آسف صديقي الذئب فما بقيت
كلماتهم للأبد
فالحق سيف كالشهب لامع
لا يبقى الزمن على حاله
والرأي السديد دائِمًا للعدل يخضع
وببن حروف الكلمات بائن

••••

إخوتي وأخواتي في الإنسانيَّة، اسمحوا لي أن أقدِّم باسمكم جميعًا هذه القصيدة لكلِّ ذئاب العالم، فسيأتي يوم ونستسمحهم أمام عظمته –تعالى-، ونطلب الاعتذار منهم، في حضرة الباري -عز وجل-، فهو جواد رحيم كريم، لا يسمح لإنسان مهما علت مكانته، وارتفع شأنه، أن يسيء لشيء خلقه، فإذا كان الأمر هكذا مع الذئاب، فما بالكم بالأمور التي تجري بين الإخوة والأهل والأصدقاء، أو باقي بني البشر الذين لا يدخرون الجهد في إيذاء إخوتهم في الإنسانية...

أناديكم جميعًا للتعلُّم من هذا الدرس، لعلَّنا نُفلح في شق طريق جديد للخير تحت خيمته –تعالى- وبإذنه على هذه الأرض.

ها أنا بعقلي المتحيِّر الثرثار استبقت الأحداث، فكتبت للذئاب هذه القصيدة؛ كي يحل السلام بيننا من الآن، وكي لا ينتقموا منَّا بني البشر، شريطة أن لا تُعادوني، أو تحسبوني عدوًا لدودًا لكم، فالعيش بين الذئاب المفترسة بات أرحم من عداواتكم لبعضكم البعض!

آسف صديقتي، آسف صديقي الذئب، أستميحكم عذرًا جميعًا إن جرحت بطرحي هذا أحدكم، أو ضايقتكم، فهذا ما يمليه عليَّ عقلي الثرثار المتحيِّر دائمًا، والغريب في الأمر إلى حد التعجُّب أني أنفذ في النهاية كل ما يقترحه عليَّ هذا العقل، وأنا أؤمن بطريقة تفكيره، ومتأكد تمامًا أنَّه يدفعني في طريق الصواب، نحو الفلاح والصلاح وعمل الخير دائمًا دون توقّف.

أعتذر منكم للمرة الألف بعد المليون؛ كي لا يبقى حجَّة لكم تواجهون عقلي المتحيِّر فيها، وأنا أتحمل المسؤولية كاملة عن هذا النمط الغريب عندكم في التفكير، أنا أريد

وعقلي البسيط المتحيِّر الثرثار يريد فيقول لي: علينا تغيير العالم للأفضل، ولطالما حلمت وكتبت وصرخت وخطبت بالناس بمقولة: « أنا وأنت نغير العالم»، كيف لنا أن نغيَّر وجه التاريخ ما دمنا لم نترجَّل عن خيولنا بعد، وما زلنا نحمل سيوفًا من خشب، لا تناسب عصرنا؟

كيف لنا أن نتقدم ونتطور؟ ونسير إلى الأمام، وما زلنا نقدس التطرُّف الديني، ونفكِّر للوراء، ونردِّد وننفِّذ كل ما يقوله في هذا الشأن أو ذاك سيادة الأمير الإمام...!

كيف لنا أن نبني الحضارة، وعلى مداخل بيوتنا وضعنا الدروع ورفعنا الرماح، وبنينا المشانق ونصبنا المقاصل لقطع رؤوس كلِّ المفكِّرين والقادمين بأفكار جديدة تفيد الجميع؟

لأنها لا تعجب سيادة الرئيس أو سيادة الأمير الإمام...!

كيف لنا أن نتقدم ما دمنا نفكر بأن العصر الذهبي الذي انقضى منذ مئات الأعوام، أفضل بكثير من حاضرنا، وأفضل بكثير من مستقبلنا وأيامنا القادمة؟ جيل يودع جيلاً، آلاف الأجيال قد رحلت، ونحن نعلم الذين يأتون من بعدنا ما تعلمناه من أسلافنا...!

كيف يمكن لنا أن نترجل عن خيولنا التي باتت في مُخَيِّلات عقولنا أعلى الأماكن في العالم بالعز والجاه... حتى بتنا نظن أن ناطحات السحاب لا يزيد ارتفاعها عن حربة رمح فارس عربي من فرسان هارون الرشيد، الذي لم يترجل عن جواده الأصيل بعد!

كيف لعقلي المتحيِّر الثرثار أن يرافقكم في مشوار العمر حتى النهاية؟

كيف لهذا العقل الخام الذي لم يُستعمل بعد أن يجاريكم في جهلكم؟

هذا العقل أعتمد عليه لا يسمح لي أن أمشي بموجب فكركم وتفكيركم الرديء أبدًا!

هو يا سادة يا كرام، يصرخ في رأسي وعقلي الباطني بأعلى صوت، ويقول لي كلمة ستثير غضبكم! يدفعني أن أقول لكم: إنَّكم جهلة... جهلكم موتكم.

يمنعني عقلي المتحيِّر، أن أقول لكم فكركم الرديء سيدمِّر العالم؛ لأنَّكم عجزتم عن التفكير الصواب... أصابكم الشلل الفكري، وعقلكم عقيم التفكير، عقلكم كمريضٍ مقعدٍ يحتاج لكرسي العجلات للتَّحرك ليتمكن من التفكير.

كل ما تفكرون به جهل في جهل مستمر، وما أصعب هذه الحالة الشاذة! ما أصعب هذا التفكير.

جهلكم يُعبِّر عن قلة فهمكم للأمور التي تدور من حولكم على مساحات عالمنا وكوننا البديع الواسع، وهنا يخطر ببالي قول يناسب حالتكم من كتابي «أقوال وحكم لذاكرة التاريخ»: كل شعوب وأمم العالم تفكِّر إلى الأمام، إلا الشعوب العربية تفكِّر إلى الوراء...

تحدثنا الكثير الكثير عن شؤون مجتمعنا بشكل عام، وكتبت على مدار ألف عام مضت، عن هذا المجتمع المتحيِّر كعقلي الثرثار تمامًا، ملايين الكتب والأبحاث والدراسات، ولكنَّنا لا نقرأ ولا نستخلص العبر، وهذه علَّة العلل التي تفشَّت عند جميع أفراد مجتمعنا، ويبقى الوضع على حاله، إلى أجل غير مسمَّى بصفات زمنيَّة، فالزمن ليس له

أي قيمة عند أهل الشرق الأوسط، فلديهم الكثير من هذا المسمى زمن؛ كي لا يسرعون لأي مكان، سوى السرعة في الشارع في قيادة السيارات والحافلات، إنهم لا يسرعون لأي مكان، لتنفيذ أي إنجاز أو أي عمل يفيد البشرية، الزمن هنا أشبه بشيء توقف مكانه، لا يضايقه أي شيء، سوى آذان المساجد، وأجراس الكنائس، وأبواق المتدينين، للإعلان عن بدء المناسبات والأعياد...

إن تعاقب الساعات والأيام هنا توقَّف، نحن في زمن تجمَّد فيه كل شيء، وكأنَّنا لسنا بحاجة للتقدُّم في أي اتجاه، توقَّف زمننا في مكانه مثلنا، ولسنا بحاجة لهذا الذي يسمونه زمنًا، يقاس بأيام أو شهور وسنوات، هناك في الكون من يحسب لنا سنين عمرنا وكفى...

فلماذا يتوجَّب علينا نحن في هذا الشرق حساب الزمن؟... قمريًّا كان أم شمسيًّا، لا فرق في تعداده، ولا توجد أي أهمية لحسابه، المهم أنَّنا نعيش فترة من الزمن، وننتقل للعالم الآخر بعد الموت، ما هو العالم الآخر؟؟؟

ما من إجابة لهذا السؤال، حتى جلست يومًا مع أحدهم فأجابني بطريقة المزاح ضاحكًا بسؤال آخر: هل التقيت بأحد من الراحلين عاد إلى هنا؟

وأتبعه بسؤال: إذا كنت قد التقيت بأحدهم بعد رحيله، هيا أخبرنا ماذا رأى هناك؟

يا ليتني أستطيع أن أقص عليهم وأحدثهم، عما يجيش في صدري من بلوغ الأمور ذروتها، يا ليتني أستطيع أن أقص عليهم ما يمليه عليَّ عقلي المتحيِّر، يا ليتنا جميعًا نُقَدِّر الأمور كما يجب أن تكون، ونعيش بموجبها، في الزمن المحدود، يا

ليتنا جميعًا نفكر الآن بيوم الغد، أو في المستقبل القادم المجهول، من أجل الجيل الحاضر، والأجيال القادمة التي ستليه، لنسلمهم في يوم من الأيام الراية، ونكف عن التفكير بالماضي الذي لا يجدي نفعًا، ولن يعود إلينا أبدًا، وكأن الزمن توقّف عنده...

يا ليتنا نُقيِّم الزمن والمسافة، فكل ما حول هذين المصطلحين، وفي مقياسهما لا يعنينا بشيء، ولا يمت إلينا بصلة، يا ليتنا نركض وراءهما كما يركض الرجل والمرأة في الغرب نحو الحياة، يا ليتنا...

••••

هكذا بدأت يومي هذا... وعادة أبدأه في الصباح الباكر، تَعِبًا مشتَّت الأفكار، أسرح في كل شيء تراه عيني لفترات طويلة من الزمن أظُنُّها ساعات... ولكنَّها لم تتعدَّ لحظات بسيطة من الزمن...

يا للهول! كيف لي أن أفكِّر بهذا الزمن المارِّ أمامي وكأنَّه ساعات؟

آه يا زمن! كدت أحصرك، أحبسك بين عينيَّ وعقلي، لكنِّي أترنح كالثملِ وأنا لم أشرب أي نوع من الخمور منذ عشرات الأعوام، ولكن الصداع ينخر عظام رأسي، كالسوسِ الذي ينخر الخشب، ولا أدري لإزالته سبيلاً.

ماذا يحصل لي هذا الصباح؟ نعم هذا الصباح بالذات، فصباح يوم الأمس استيقظت مبكِّرًا كعادتي، ورافقني النشاط حتى عودتي من العمل عند المساء، وليس هذا فحسب، بل

خرجت لرياضة المشي على الشاطئ، وتحدثت مع أمواج البحر عن بلاد غريبة رأتها الأمواج في ترحالها بين شواطئ الجزر وسواحل القارات، داهمني الوقت، وكدت أصل لمدينة عكا سيرًا على الأقدام، لو لم تستوقفني صفَّارات إنذار القطار الذي يسابق الزمن في جريه جنوبًا.

كيف أقول في جريه وهو آلة حديدية لا تملك الأرجل، يسيرها الإنسان، ويسيطر عليها في كل اللحظات؟

كيف لي أن أعتبر هذه الآلة، المصنوعة من الحديد والمطاط ومعادن أخرى، وأجمعها في آن واحد مع صفات إنسانية، أو صفات لكائنات حية قد ترى ما يجري حولها وتأكل وتشرب، وتبصر وتدمع وتفرح وتحزن، تخرج من جسمها البراز والبول... وتنجب وتتألم؟

ماذا دهاك إلى هذا الحد؟ ما الذي أغراك بمجرد التفكير بينك وبين نفسك على هذا النحو؟ يجب أن تكون هناك أسباب وجيهة لهذه الأفكار، وهذا التشتت والبعد فيها... لكن دعونا نتخيل أن كل الآلات التي صنعها الإنسان، تصبح، وفي لمح البصر، كائنات حية تحافظ على خواصها وأجسادها، كما كل فصيلة من الكائنات الحية، وتشعر بالحب وتتألم وتتكاثر... تُرضع أولادها، وتبني لها البيوت والمنازل، وتعيش مثلنا تمامًا، من كل نوع من الآليات إناثًا وذكورًا...

يا للهول! حقًا سيصبح عالمنا عالمًا عجيبًا وغريبًا، فسمعنا على لسان أحد المعلقين الاجتماعيين، لو يستمر تكاثر الإنسان بالنسبة ذاتها عند كل مجتمعات أهل الأرض، كما هو الحال في المجتمعات المحافظة والمتديِّنة، بغض النظر عن أي دين، لخمسين عام فقط... لما بقي شبر واحد من الأرض

اليابسة، غير مأهول بالسكان، فما هو الحال إذن؛ لو تكاثرت كل الآليات على الأرض؟ والتي نعتبرها صنيعة يد الإنسان، فأين سنسكن نحن بني البشر؟

تخيَّلوا لو تنشب حرب ضروس بين الإنسان والآليات التي صنعها، كما يتخيل بعض السينمائيين في أفلامهم، ستأتي الآليات على البشرية جمعاء، وتدمر هذا العالم المتكامل التوازن، وتتركه حطامًا وأنقاضًا، هذه الحرب ضد الآليات، لن تُبْقي من البشرية أي حضارة، أو أي زوج من ذكر وأنثى من الجنس البشري، ليقص ويحدِّث القادمين بعدنا عن عالمنا المندثر...

شاهدتُ في الأسبوع الماضي فيلمًا سينمائيًّا عن سيطرة بعض الآليات على عالمنا، وقد أخافني هذا الأمر جدًا، وها أنا بعقلي البدائي البسيط المتحيِّر الثرثار، أفكِّر في قصَّة الفيلم وكأنَّه حقيقة، نعم وكأنَّه حقيقة يصعب علينا تصديقها؛ لأنَّ هذه الفكرة لا تخرج مع مشاهدي الفيلم من صالات دور العرض، ولا يتعلمون العبرة منها، فتبقى بين جدران مبنى العرض لدار الخيال، لكن عقلي المتواضع، يحاول وبكل قواه الصراخ، والصراخ داخل رأسي! وفي كل مقوماته العقلية الفكرية، منذرًا إيانا نحن بني البشر، للتعلم من هذه العبر المعروضة في كل دور الخيال؛ كي لا يصبح الخيال واقعًا نعيشه، وحقيقة من أمرنا.

يا لعقلي المتحيِّر!

كيف يستطيع التفكير في كل الاتجاهات؟

وفي كل الحالات؟

من دون توقف؟

حتى في نومي يفكِّر! نعم حتى في نومي العميق يفكِّر!

في سفري يفكِّر!

في عملي وجلوسي وذهابي وإيابي يفكِّر!

حتى في أوقات راحتي وأكلي وشربي يفكِّر... يفكِّر! وكم يفكِّر من دون توقّف...

يا لها من معاناة حقيقيَّة، لا يشعر بها أحد غيري من بني البشر، حتى لو فكَّروا وفكَّروا وفكَّروا... ويدفعني هذا التفكير الدائم، إلى غياهب المجهول، والزمن الغابر، والزمن القادم، ويدفعني بالتفكير في علم الغيب والأرواح، والموت والحياة السرمدية، وبداية الكون ووجود بني البشر والكائنات الحية عليه، يدفعني للتفكير في الجماد والنبات والشجر والهواء والنجوم والمجرَّات في هذا الكون الذي يصعب عليَّ -أنا الإنسان البسيط بعقل متحيِّر ثرثار- فهْمُ هذه الأمور أو إدراكها بذاتي الممزقة المتعبة من ملايين السنين التي مرَّت، وكم طلبت من هذا العقل المتحيِّر الثرثار، التوقُّف عن التفكير، إلا أنَّه لا يستجيب لطلباتي المتكرِّرة بإلحاح، وأنا كم أعاني بسببه!

ذات مرة طلبت منه وبكل جديَّة: أعتقني وحرِّرني يا عقلي من التفكير، فأنت سبب تعبي وسبب قلقي من كل شيء، وعدم راحتي، لم تترك لي لحظة لأكون حرًّا فيها أفعل ما أشاء، كإنسان حُرٍّ يملك قراره لوحده، إلا أنَّه يعاندني ويرفض كلَّ طلباتي بإصرار منقطع النظير، لم تترك لي برهة من الزمن لا ترافقني فيها بالتفكير المتواصل، حيرتني وجعلتني عبدًا لك، وأنا أريد أن أكون عبدًا لله -عز وجل- وحده لا شريك له، وأنت يا عقلي المتحيِّر الثرثار، تجرُّني رغمًا عني إلى ردهات

الفكر، والعولمة والفلسفة، وأنا لا أفهم فيها أي شيء.

أعتقني كي أكون عبدًا للباري -عز وجل- فقط، لن أعبد سواه.

وأنت يا أيها العقل المتحيِّر المسيطر عليَّ في كل شيء، وكأنَّك العقل الوحيد للبشرية، تتعمَّق في التفكير بكل شيء، وتفكِّر عنها في كل شيء، اترك للآخرين شيئًا واحدًا يفكرون به، فقد سئمت عقولهم السبات في جماجمهم، ولعلها تورق هذا العام كالأشجارِ في آذار، وتثمر في أيار، وتقطف ثمارها في آب... اترك لها مهمة واحدة لتفكِّر فيها لعلها تجيد التفكير أفضل منك، خاصة وأنت يا عقلي المتحيِّر شيء ما مُستَوْجَد بسيط على يد الباري -عز وجل-، لا يمنحنك هذا الوجود أي امتيازات بدون تضحية وعطاء وعمل وجد، واجتهاد ومثابرة وعصامية قصوى، وإيثار من دون انتظار المقابل، هذا ما أحاول ترسيخه فيك منذ بدأت التفكير، وأنت تحيِّرني بين نفسي ونفسي، تحيِّرني بين ذاتي وذاتي، تجاريني بالآخرين، تفكر وتسرح في التفكير، وتبتعد عني لمسافات... لمسافات... وتعود إليَّ بأفكار ومفاهيم لا أفهمها أنا صاحب هذا العقل المتحيِّر، فكيف يفهمها مني شباب مجتمعنا، كيف يفهمها إنسان آخر من جنسنا البشري، فمنذ ما يزيد عن مائة عام وأنا أتمنَّى أن يفهم أفكاري شخص واحد على الأقل في هذا العالم، ولكن عبثًا أبحث جاهدًا عن هذا الشخص، غير مهم إذا كان هذا الشخص ذكرًا أم أنثى، أو من أي البلاد كان، المهم أن يتجاوب مع الأفكار التي تفيد مجتمعات أهل الأرض، وتأتي إليها بكل ما هو خير لها.

عذرًا أهلي وأصدقائي ومعارفي، ألتمس عذرًا من كل أهل الأرض، بِنيَّتِي أنا لا أريد أن أذمكم، ولا يختلج إرادتي أن أجرح منكم أحدًا، لا بالكلمات الجارحة ولا بالانتقاص من قدركم وقيمتكم، فأنتم جميعًا أفضل مني في كل شيء، ولكن عقلي المتحيِّر هذا يدفعني للتفكير في مسارب وأزقة روحي المتعبة، فتتصل الأرواح ببعضها لتصبح الروح الواحدة السرمدية الأبدية، القادمة من الأزل، وتبني الكون من جديد، دون أن تدمِّر أي شيء، فيعيش الجميع بمحبة عُظمى، لا يوقفها أي شيء حتى الوصول، لعصر يسكن الواحد منا دياره، ويتمتَّع بالفكر الواحد، والعقلانية، ويزرع بذور المحبة بين الناس، وننشغل بحمد لله -عز وجل- على هذه الدروب التي نمشي عليها، والمسلك الحسن بقوته –تعالى- ومحبته، ووفائنا وإخلاصنا لبعضنا، وعطائنا وإيثارنا لكل شيء خلقه الله –تعالى-، في هذا الكون الكامل المتكامل، الذي يحتِّم علينا المحافظة عليه كما هو حتى يأذن لنا بأمره تغيير أي شيء، هذا هو التفكير بالواحد الأحد دون سواه.

••••

عدت لسيَّارتي التي كنت قد ركنتها على الشاطئ، قبل ما يقارب الساعتين، ولم أجدها بمكانها، لا... لا لم أجد سيَّارتي في المكان الذي ركنتها فيه، وكأن الأرض قد انشقَّت وابتلعتها، وبما أني بجانب البحر فما للأرض وسيارتي لأتهمها... بل وكأنَّ البحر قد ابتلعها، فهذا البحر معتاد منذ الأزل على ابتلاع كل شيء، ليس الأمر مهمًا الآن، أنا في المكان ذاته ولا أجد سيارتي! ترى أين ذهبت؟ أقصد ماذا حل بها؟ هل سرقها أحدهم؟

أولئك الأشخاص المجرمون، الذين لا يريدونني وعقلي المتحيِّر أن نتصالح، قد يجوز أن أحدهم سمع نقاشي مع عقلي المتحير هذا، وأراد الانتقام منا، أقصد مني، فسرق سيارتي، هيا تفضل وحل لي هذه المشكلة يا عقلي المتحيِّر، أين سيارتي الآن؟

فقال لي عقلي المتحير: ما دمت في المكان ذاته فما من مشكلة، المشكلة تبدأ إذا أنت في مكان آخر، تأكد من المكان، هل هذا المكان الذي ركنت سيارتك فيه؟ نعم، يا سعادة العقل المتحيِّر، هذا هو المكان ذاته، وإلا لماذا كنت لأتحدث معك طالبًا منك المساعدة؟ أجابني للمرة الثالثة: «تحقَّق من المكان!» فبدأت أتفحَّص الشارع المؤدِّي للشاطئ، وفي مخيَّلتي ذاك المصنع لحجارة الرخام، ترى أين اختفى هذا المصنع؟ كان بجواره عدد من الشاحنات المحمَّلة بالرخام، كأنَّها جاهزة لنقلها لمكان آخر.

قاطعني عقلي المتحيِّر قائلاً: إذن، أنت لست في المكان الذي ركنت فيه سيارتك.

اسكت! صرخت فيه وبأعلى صوت: بالله عليك، لا تقاطع تفكيري هذا، فأنت سبب المشكلة وتعيق عليَّ الوصول للسيارة.

أنا سبب المشكلة؟ أجابني بتعجب!

نعم أنت السبب لجميع مشاكلي، فطبعًا سمع أحدهم نقاشاتنا الكثيرة، وأسرع ليسرق سيارتي، ولولا هذه النقاشات غير المجدية لكنَّا في هذه الساعة قد وصلنا إلى البيت، أو على مقربة منه، اخرس تمامًا أيُّها العقل المتحيِّر حتى أجد سيارتي.

فجأة تذكَّرت الشاب الوسيم الذي كان يركض بجانبي باتجاه مدينة عكا، فقد ركن سيارته بجانب سيارتي، نعم هو كان هناك، وبدأنا بالركض معًا، انطلقنا وعدنا معًا، وها هو يقود سيارته ويمر بجانبي، فأين سيارتي إذن؟

ورحت أركض على الشاطئ كالمجنون، وألهث من شدَّة الركض السريع، حتى تذكَّرت وأيقنت أنَّ المكان الذي أبحث فيه عن سيارتي ليس هو المكان الذي ركنتها فيه، فكيف لي أن أجدها في مكان آخر، لتنتظرني فيه كسيدة محترمة، وركضت خمسة دقائق حتى وصلت إلى الشارع المؤدي إلى شاطئ البحر، قرب مصنع أحجار الرخام، ونظرت يسارًا، وإذ بسيارتي الأمينة الوفية الجميلة، ما زالت تنتظرني في المكان ذاته، ولم تتحرَّك أو تبرح المكان للحظة واحدة! تبًّا لك وتبًّا لأفكارك وتصرفاتك غير المرضية.

عندها قال لي عقلي المتحيِّر: لا تشتمني، فأنا سرعان ما قلت لك: أنك لست في المكان الذي ركنت به السيارة، لكنك من شدة هلعك وخوفك أن تكون فقدت أحد ممتلكاتك الحبيبة على نفسك، وكأني طرت من رأسك وأبقيتك وحيدًا، فأنتم بني البشر عجيبون في كلامكم وتصرفاتكم، فسرعان ما تقولون عن غيركم من الناس، أن عقله قد طار، وهل أمْلُك أنا العقل جناحين لأطير؟ لم تصدِّقني ولكن أي غريزة طمع تمتلكك؟ حُب الممتلكات والنيل من المال جعلتك كالمجنون بالرغم من أنَّك تمتلك كل حواسك كاملة وكل أعضاء جسمك بدون نقص، هذا ليس مهمًا، ولكن بمجرَّد تفكيرك الأوَّليِّ وشعورك أنَّك فقدت سيارتك استشطت غضبًا، ورحت تولول وتصرخ بي، وكأني أنا سبب فقدانك

لسيارتك... وتابع عقلي هذا قائلاً: قل لي بربك، من لديه الرغبة لسرقة سيارتك القديمة هذه، والتي لا تساوي شيئًا؟ فبصعوبة بالغة توصلك من البيت إلى الشاطئ، وتعيدك إلى البيت، تذكَّر أنَّ عليك تقديم أسمى آيات الشكر والامتنان لها، على هذا العمل الرائع والإنجاز المتميِّز المثالي، فلولاها لبقيت هنا على الشاطئ، أو لم تخرج من البيت لتركض وتتمتَّع بمساحات البحر... وبكل ما هو جميل على الشاطئ.

قُل لِي بربك، لماذا تنصَّلت من المسؤولية؟

لماذا اتهمت الأرض والبحر بابتلاعها؟

لماذا اتهمت أشخاصًا لا نعرفهم بسرقتها؟

أهذا هو حالكم يا بني البشر بعد مُضي ملايين السنين على هذه الأرض، لا تتحمَّلون أي مسؤوليَّة عن أعمالكم، لا تتحمَّلون نتائج تصرفاتكم.

كيف سيسامحكم خالق هذا الكون ما دمتم هكذا إذن؟ كيف سيسامحكم ما لم تتعلَّموا أشياء جديدة؟

كيف سيسامحكم ولم تتعلموا في الفهم والعقلانيَّة والروحانيَّة والتفكير أمورًا تغوصون فيها في الأعماق؟

كيف لم تتعلَّموا أي شيء بمُضي هذا العمق الزمني الطويل جدًا؟

إنَّ الملك للخالق وحده، هو مالك الملك، خالق السماء والأرض، وكل ما عليهما فَانٍ وعائد لوجهه الكريم ولمحض إرادته الكلية فقط، وأنتم يا بني البشر ضُعفاء وأضعف مما تَتَخيَّلون، فجرثومة بسيطة لا تُرى بالعين المُجرَّدة، ولا ترى بدون تقنياتكم العصرية التي هداكم الله –تعالى- لصناعتها،

تأتي عليكم تقتلكم جميعًا، وتكاد تنهي الجنس البشري على هذه الأرض تمامًا، لولا تدخله –تعالى- برحمته ورأفته -عز وجل- لحمايتكم ورفع البلاء والوباء عنكم...

أنتم يا بني البشر كباقي الكائنات، لا تملكون ها هنا أي شيء على هذه الأرض، فكل ما عليها وتحتها وفي كل مكان، من فضل الله –تعالى- على البشرية وسائر المخلوقات، هو الذي خلقكم، وبدونه لما تحرك أي شيء في هذا الوجود من كون بديع واسع، والذي لا تستطيعون أنتم بني البشر فَهْمَه، وفَهْم إدارته حتى لو استعمَلت كل عقلك أو كل عقولكم البشرية معًا وفي آنٍ واحد لن تنجحوا في فهم هذا الكون ومساراته ومساحاته وإدارته، وجوانبه الكثيرة من أصغر شيء حتى أكبر شيء فيه...

يا ليتكم تفقهون وتدركون كم أنتم لا تعلمون! فكل شيء على هذه الأرض حتى لو كان أصغر الأشياء، يحتاج لخلقه وإيجاده خالق من علم الغيب، إلى علم الوجود والواقع والحقيقة، قبل كل شيء لوجود الواجد الخالق الواحد الأحد، فكيف تفهمون هذا الأمر البسيط الواحد من بين مليارات الأشياء في الأمور التي خلقها الله -عز وجل-؟ والتي أوجدها من العدم ومن لا شيء، كل هذا وأنتم غير مدركين لحقيقة هذا الوجود الذي تستغلونه وتستمتعون به، وتستعملون كل ما فيه من مقدَّرات لمصلحتكم في قضاء حاجاتكم وحوائجكم، وفي النهاية تتمادون وتتمادون حتى على الخالق، ولله –تعالى- في خلقه شؤون، لو أراد لَمَحَا كل شيء من هذا الوجود في رمشة عين، وأنتم بني البشر في عنادكم مستمرون، ولشدة ضعفكم سيُقضى نحْبكم وبدون أي عناء أو تعب...

على فكرة إذا بقيتم هكذا، على حالكم السيِّئ المتدنِّي في كل شيء من الكراهية والحقد والحسد لبعضكم البعض، في فرض سوء النوايا، وعدم الحكم بالعدل والرحمة، وفي محاولة استعباد أحدكم للآخر، وعدم تقبُّلكم بعضكم بعضًا كما أنتم، ومتابعة شجب حرياتكم لبعضكم، من دون المساواة بينكم والتآخي، وعمل الصالحات والخير والتسامح والبر والإحسان بجنسكم البشري... فلن تُنقلوا إلى العالم الآخر، وربما لن تدخلوا الجنةَ أبدًا.

••••

أتعبني حديث عقلي المتحيِّر الثرثار هذا، لم أجبه حتى بكلمة واحدة؛ كي لا أفتح معه نقاشات جديدة، مع أنَّني أوافقه الرأي في كل كلمة أملاها عليَّ، جلست في سيارتي على كرسي السائق، ورحت أتأمَّل البحر من جديد كعادتي، وباشرت أسرح في طرقات الآخرة ونهاية العالم، والقيامة والحساب والجنَّة كما قال...

وفجأة وقف نظري على شجرة ليست كباقي الأشجار على أحد قمم جبل الكرمل الأخضر، هكذا نُسَمِّيه نحن سكانه منذ زمن بعيد، بالرغم من أن الحريق الذي نشب على مراحل في السنوات الأخيرة أحرق مئات آلاف الدونمات منه، لكنَّه بقي وبنظري أنا خاصة على الأقل؛ جبل الكرمل الأخضر، فالطبيعة أقوى من أي شيء، وتعالج نفسها بنفسها، حتى لو أحرقت أشجار الكرمل بكاملها سيتجدَّد اخضراره في مراحل الطبيعة الأم مع الزمن، ويزداد اخضرارًا في كل يوم يمر، واخضراره ليس كاخضرار باقي المناطق والأحراش الطبيعية في كل العالم

وأقطار الأرض، بل أجمل بكثير بكثير... تلك الشجرة الكبيرة الباسقة، يا لجمال منظرها! يا لروعتها وروعة هذا المنظر الذي أراه من هنا! لم أنتبه إليها من قبل.

فضحك عقلي الثرثار المتحيِّر، وقال لي: حقًّا! أنت لا تتذكَّر أي شيء كالمعتوه، ونَعَتَنِي مرارًا بالغبي، ففي كل يوم أمر معك بجانب هذه الشجرة الباسقة مرتين في سفرنا للبحر، وعند عودتي معك للبيت، أوَلم تنتبه إليها البتة؟

قلت لعقلي: هذا أمر عجيب، يكاد يصيبني بالجنون، ما نراه من هنا من هذا البعد، يُوضِّح جمال هذه الشجرة، وكلَّما اقتربنا منها أكثر يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ جمالها الطبيعي يتغيَّر! والحقيقة أنَّه لا يتغيَّر هذا الجمال ولا يضعف مقداره، إنَّما يقل في عيوننا تقدير هذا الجمال الفائق، نِعْمَةُ البعد وراءها حكمة وموعظة كبيرة، علينا نحن بني البشر أن نتعلَّمها كاملة، ونفهمها لدرجة الإدراك أيضًا، البعد! نعم البعد بالمسافات، هو سبب جمال كوننا البديع. فالله –تعالى- يراقبنا يشاهدنا من عُلاه ومن كل مكان، عن بعد كبير جدًا لا نفهمه نحن بني البشر، وفي الوقت ذاته قريب منا، لدرجة أنَّ بإمكانه لمسنا أو أكثر من ذلك، فهو في عقلنا وقلبنا وروحنا... لا يتركنا أبدًا؛ حاضر ناظر في كل الحالات، ويرى كل ما يدور من حولنا، ولا يتصوَّر عقلنا البشري هذه المسافات، القريبة البعيدة في آن زمني واحد، فيه البعد والقرب بالمسافة والزمن، لذلك يتَّضح للباري -عز وجل- جمال عالمنا وكوننا البديع الخلاب، الذي أبدعه لسبب ما يعرفه هو وحده فقط، ولا يمكننا نحن بني البشر تصوُّره، أو أن نقدِّر جماله بهاتين العينين الصغيرتين الضعيفتين. يا لروعة هذه الحكمة، كلَّما اقتربنا من الشيء نراه عاديًا ولا

نَنبَهِرُ لجماله، وكلما ابتعدنا عن الشيء والمكان بالمسافات، نرى جماله الحقيقي، فالبعد يزيد في جمال كل الأشياء، يا لها من معادلة صعبة على الفهم، فلو فكَّرنا بهذه المعادلة عمرًا كاملاً لن نتمكن من فهمها تمامًا بكل ما توحي إلية من أمور.

••••

هناك على جبل الكرمل الأخضر، منطقة تدعى شجرات الأربعين، أعرفها منذ الصغر، وطالما زرتها مع والديَّ والأهل والأقرباء، ووفينا فيها نذورًا كثيرة، إيمانًا منَّا أنَّ في هذه الغابة من شجر السنديان العتيق، تَعَبَّدَ أربعون نبيًّا وجلس كلُّ نبيٍّ تحت شجرة باسقة كبيرة من السنديان، يا للعجب الشجرة الباسقة التي أتحدث عنها هي من هذه الغابة من مجموعة الشجرات الأربعين، رأيتها عند غروب الشمس، قُبيل المساء والنور يملأ الجبل الأخضر ويشع منها، وقبل ذلك النور الوهاج القابل للاحمرار بلحظات، رأيتها خضراء وكأنَّها تضفي اللون الأخضر على أشجار جبل الكرمل وصخوره، كل شيء كان هناك أخضر... الآن فهمت سبب تسميته بالجبل الأخضر، فمن كل مكان تنظر إليه تراه أخضر اللون، حتى في أيام الصيف الحارة فشجره دائم الاخضرار.

راح عقلي الثرثار المتحيِّر، يهزأ مني ويضحك حينًا ويسكت حينًا آخر، وقال لي: أنت الآن في منطقة الشمال الشرقي لمدينة حيفا، في جوف خليج حيفا تمامًا، والساعة الآن السادسة مساء، موعد مغيب الشمس، والشمس تغيب في الغرب يا ذكي، فلذلك رأيت نور الشمس المُحْمَر عند الغروب وكأنَّه يشعُّ من هذه الشجرة الباسقة، أنا لا أسخر من المنطقة

والشجرة، على العكس تمامًا، لكنَّني منطقي، وتعلَّمت علم الاتجاهات، ولو نظرتَ للغرب زيادة بخمس عشرة درجة للشمال في الساعة ذاتها، ووقفت كمنصف للزاوية الغربيَّة، لرأيت غروب الشمس، وشاهدت كيف تسقط الشمس في قلب البحر، تاركة وراءها أشعتها المحمرَّة القانية على مِيَاهِهِ، وعندها كنت لتقول أنَّك رأيت النور المُحمر يخرج من مياه البحر، ولو لم يُصدقك أحدهم لأقسمت عشرات المرات، أنَّك حقًّا شاهدت النور يشعُّ من البحر، وأنَّك صادق في ما تقول، نعم هكذا أنتم يا بني البشر، يوم يصعب على الناس تصديق أحدكم، ينهال أمامهم بالأَيمان ليصدقوه، هذا الأمر ليس له أي مكان في علم الواقع والحقيقة.

اسكت بربك، قلت له بصوت مرتفع، فسكت عقلي المتحيِّر وصمت، أنا أريد أن أصل إلى بيتي لأستحم وأنام، فإنَّني متعب من رياضة الجري، ومن تفكيري بكل هذه الأمور التي حولي، فعقلي دائم التفكير في كل شيء على مدار الساعة، حتى وأنا نائم يفكر ويجهدني بتعب لا يطاق.

وصلت إلى بيتي بعد نصف ساعة تقريبًا، ركنت سيارتي في موقفها بجانب البيت كعادتي، حملت حقيبتي، ودخلت للبيت، ورحت مسرعًا في اتجاه الحمام، استحممت، خرجت من الحمام، واستلقيت على سريري قبالة التلفاز، وبعد بضع لحظات غطَّت عيوني في نوم عميق جدًا من شدة التعب، نوم عميق كهذا لا يقف بيني وبينه حاجز من أي نوع، ولا يوقظني من نومي هذا أي شيء، حتى لو انفجرت عبوة ناسفة بجانب بيتي، لن تتمكَّن من إيقاظي، نوم عميق... عميق... عميق... لأبعد الحدود.

تحير عقلي وازداد حيرةً ساعة رآني نائمًا بهذا الشكل، فإنَّه هذا العقل المتحيِّر الثرثار، لم يعتد منِّي أبدًا أن أنام نومًا عميقًا وطويلاً، وراح يحاول إيقاظي وحثِّي على الحديث معه، إلا أنَّه ولأوَّل مرة يفشل هذا العقل اللبق الناضج، ولم يتمكن من إيقاظي، وَجَعْلِي كعادتي أترك كل شيء، وأتتَبَّعه في كل شيء، ولأول مرة منذ ثلاثين عامًا، نمت ونمت كالطفل المتعب دون أن يضايقني أحد...

••••

يا صديقتي التي ما رأيتها منذ البداية، وما التقيت بها، ولم أتحدث إليها أبدًا، ولكنَّني أعتبرك صديقتي، وكل ما يحدث معي أقصُّه عليك، حتى أبسط التفاصيل في كل شيء، هي لا تمل من حديثي وتسمعني حتَّى النِّهاية، تمتلك روحًا طيِّبة وحسن إصغاء مذهلاً رائعًا، ترافقني حتى باب غرفة نومي، وتقول لي: ليلتك سعيدة وأحلامك أيضًا، تتركني لأنام وحدي وتذهب.

يا لها من صديقة رائعة حميمة، تعرف الحرام والحلال، الذي نصَّه الله –تعالى- العلي القدير من علٍ في كتبه السماوية، وأدركته قلوب وعقول بني البشر، ترى أين تذهبين بعد أن أنام يا صغيرتي؟ أنا لا أعرف وهي لا تجيب!

يا صديقتي دائمًا أنتظر اللحظة التي أمسك بها يدكِ ونمشي معًا يدًا بيدٍ حُفاة ندوس رمال الشاطئ، ونجلس في ظل أشجار الصنوبر والنخيل، هنا يا صاحبة الجمال الفائق، ستشعرين بمدى احترامي لكِ وتقديري، من دون كلام، لن

أتردَّد بالإفصاح عن عشقي الدفين الذي ينتظر في إحدى محطات قطار الزمن الآتي منذ الأزل... ليخرج لحيِّز التنفيذ، وأركض إليكِ معلنًا على الملأ حرارة حبي لك، ليبقى معي هذا الحب، يرافقني كظلي، يعيش في قلبي وروحي وعقلي، ولا ينتهي إلى الأبد... يا صديقتي الوحيدة، كم أُتمنى لكِ من عميق الروح في جسدي أن تنجحي بكل اختبارات وامتحانات الحياة، وأعدكِ أن نحتفل معًا وسويًا بهذا النجاح الباهر بإذن الله -عز وجل-، سأهبك كل ما أملك من حواس وحب ومشاعر وخصب... فلا تبتعدي عني، اقتربي مني كملامسة الروح للقلب، وومضة الفكر السحرية في خلايا وحانات وحجرات عقلي وقلبي وروحي... إليكِ كل ما أملك نحن جسم واحد.

نحن حلم واحد...

لنا أمل واحد وحديث طويل... طويل...

هذا ما كنت بدأت أحلم به، ولأول مرة أحلم أحلام اليقظة، وأنا أمشي وحيدًا على شاطئ البحر، تذكَّرت أني لم أقص عليكم هذا اليوم أي شيء، يا للهول، لقد نسيت أن أقص عليكم تفاصيل خروجي من حالة النوم العميق إلى حالة اليقظة، ونسيت أن أصف لكم طريقي من بيتي إلى شاطئ البحر، ونسيت أن أحدثكم عن يوم عملي المضني الذي مررت به، ونسيت كعادتي أن أفسِّر لكم كل شيء؛ كي لا تقولوا أنَّني أقفز من زمن لآخر، أختصر القصة وأزوِّر التفاصيل، فنحن في الشرق الأوسط، عندنا الكثير من الوقت والزمن؛ كي نجتهد بإخبار بعضنا البعض بالأحداث، وسرد أصغر تفاصيل الحالات، حتى المملِّة منها، هكذا نحن نخشى أن يقاطعنا أحدهم، ويقول عنَّا أُصبنا بمرض النسيان، لذلك؛ يجب أن

تستمعوا لكل حديثي حتى النهاية، ولكل كلامي بالرغم من أني لن أجري لكم غدًا صباحًا أي امتحان بالتفاصيل.

هكذا نحن نحب الكلام، وأحيانًا الثرثرة عن أي شيء، فلماذا خلقنا الله هكذا؟ لنا عينان وأنف ولسان وعقل...

على فكرة خلق لنا آذانًا صاغية لتستمتع بالكلام العذب، وهذه كلُّها وأخرى نسمِّيها حواس في جسم الإنسان، فما قيمة الكلمات إن لم تجد الآذان الصاغية التي تستمتع بها؟ وما قيمة الآذان إن لم تتعوَّد حسن الإصغاء للكلام؟ على فكرة؛ هذا ما قاله لي عقلي المتحيِّر الثرثار، فهو يحاول دائمًا زجَّ بعض الأفكار في حديثي معكم، وكل فكرة منها تحتاج لملايين الأعوام للنقاش والبتِّ فيها، وفي النهاية لن نصل للحل بتاتًا، فهو عقل شرق أوسطي، وعلى ما يَبدُو، لا قيمة للزمن عنده، ولا قيمة للمسافة.

يا صديقتي أنا تعب جدًّا هذا المساء، أنهكني العمل والتفكير، والسير فوق الرمال، فجلست وحيدًا معك، ومع البحر والشاطئ ومع عقلي المتحيِّر الثرثار... كيف جلست وحيدًا؟ أنا يا صديقتي لا أدري! فنحن خمسة في جلسة واحدة، أنت والبحر والشاطئ وعقلي وأنا... هذا الأمر ليس مهمًّا عندي، المهم أنَّني لم أتخلَّ عن لحظة واحدة في وحدتي، إلا وأنت فيها ومحورها، نعم أنت محور ومدار تفكيري، وإذا جلستُ وحيدًا وأنتِ كنتِ معي بفكرك، وعقلك وطيفك ورسمك... فإذن، أنا لم أكن وحيدًا هناك؛ لأنَّني جلست معك بفكري، صحيح أن جسمك الفيزيائي لم يكن معي، ولكنَّني تفحصته وتذكرته بكل تفاصيله الدقيقة، التي رسمتها له بأفكاري، وشعرت بكل ما عندك، حتى أني شعرت بدمك

يجري في عروقك وشرايينك، حتى بان لي أنَّك معي هنا في كل شيء... والبحر والشاطئ وحتى عقلي المتحيِّر الثرثار، لم يزعجونا، ولم يشوشوا تفكيرنا عن حديثنا الطويل معًا، إنَّه حديث ممتع من القلب إلى القلب، هذا أنا يا صديقتي المَلِكة، نعم هذا أنا أتحدث عنك وإليك، أراك في كل شيء، بشكل طبيعي تنسابين وتتناغمين مع روحي المتراقصة على الشاطئ، وموسيقى البحر تعزف أجمل ألحان الطبيعة الأم التي جمعتنا معًا ها هنا... أنا لست وحيدًا بوجودك معي يا صديقتي، بالرغم من وجود البحر والشاطئ والسماء، وما دمتِ معي وترافقينني في كل الأشياء، فما حاجتي للبحر والشاطئ وباقي المجسَّمات، فبحضوركِ أنتِ يغيب ويُغيَّب عن عقلي وفكري كل ما على الأرض وفي السماء...

أنت تزيدين في سعادتي بالرغم من أنِّي لم ألتقيك يومًا، أو حتى لم أتحدَّث معك وجهًا لوجه، أنت تُريحِين نَفْسِي من تعب السفر، والمجيء لهذا المكان الذي اعتدت الجلوس معك فيه، سافَرْتِ لأبعد مكان على الأرض عني، تركتني أقرع أبواب الذاكرة دون النسيان...

آه يا عقلي المتحيِّر الثرثار المُتْعِب، كيف فاتكَ أن تُدَقِّق في تفاصيل السفر، وتحذِّر صديقتي؛ كي تعدل عن رأيها، وكي لا تتعب، فإني أتعب حين تتعبين، وأقلق حين تقلقين، وأنام حين تنامين، يا جزءًا من روحي ودمي المسافر في كل طرقات الأرض، وأنت لا تدرين! آه يا زمنًا مرَّ بدون أن تأتي، وعقلي ملَّ التفكير بالعالم وعادات بني البشر، والكون الواسع البديع، نتحدَّث هنا عن الفلسفة الميثودية ولا نراها، نبحث في الكون عن مسارات النجوم والمجرات، ولضعفنا لا نقترب منها،

هكذا أنت يا صديقتي الرائعة، أُكْثِر الحديث معك وعنك، ولا أقترب منْكِ، أشعر بِوُجُودِكِ معي، بالرغم من سفرك، بقيت كما أنتِ عالقة بالفكر منذ تقابلنا للمرة الأولى، وكانت تلك المرة الوحيدة التي رسمت لك صورتك على لوحات روحي، وفي حنايا فؤادي وفكري الأبدي المتعلق بكِ...

أشعر أني ثَمِلٌ من رائحتكِ المبعوثة إليَّ بزجاجات مُعبأة من اللحظات التي رسمتك بخيالي، فكم أنا سعيد! فرائحتك تعبق في المكان، حتى باتت رائحة البحر من عطرك المُحَلَّى بالطيب، فامتزجت بماء البحر، فأزالت منه الملح، ورائحة الأزهار والطبيعة الأم تفوح من ثنايا جسدك النضر، يصعب عليَّ وصْف هذه الرائحة، أو الدخول في الشرح عنها، فتزداد ثُمالتي، ولا أعي ما أقول، ربما هذا هو الجنون، وربما هذه هي العبقرية المدوَّنة في العقول...

هنا جلست مع صديقتي التي ما رأيتها منذ البداية، وما تحدثت إليها أبدًا، ركضنا على الشاطئ تقاذفنا بالرمال وماء الملح، قلبي يصفها بأدق التفاصيل، وعقلي يوافق، وأنا لا أتذكر حتى لون عينيها، أو لون بشرتها، أمشي معها على الرمال، نقفز فوق صخور الشاطئ، أحكُّ رأسي بقلمي لعله يتذكر ويسجل أفكاري البريئة، دون أن تقال... فما بفكري من كلمات يصعب على الناس تحمُّلها، حتى لو قلتها بأسمى وأجمل العبارات، أعترف بحبها وأعلن حبي الصادق على الملأ، وأصر على: «أحبك للأبد».

عندها صفَّق لي عقلي المتحيِّر الثرثار بقوَّة، لم أتذكَّر يومًا أن صفَّق لي أحدهم بهذا الشكل! وقال لي: أفهمت الآن سبب صمتي وسكوتي في الساعات الأخيرة؟ فقد أبدعت بوصف

الحالة الخاصة مع صديقتك التي ما رأيتها منذ البداية، ولم تتحدَّث إليها أبدًا كما تقول... يا لجمال هذا الانسجام المتناغم مع انسياب الطبيعة الأم الخلابة الجميلة، التي جمعتك بصديقتك، لكنَّني أنا لم أرها أيضًا، وهذا ليس مهمًا، المهم جمال كلماتك وتعبيرك عنها، فيا جمال ما تصفها به! ورائحة عطرها التي لم أشتَمُّها أبدًا، هذا بات الأمر الأهم في حوارك وحديثك معها بالرغم من أنني لم أرها، ولا أريد رؤيتها، ولكنني أعترف أمامك أنك شوقتني للقائها منذ اللحظة الأولى، منذ البداية، إلا أن هذا المنظر الشجي للطبيعة الخلابة الأم، زادني شوقًا للتعرُّف إليها ولقائها، فهذا يشكل الصورة الأجمل للحديث في كل ما تقول، لم يبقَ عندي كلمات لهذا المساء الناعم بوجودك معها، لذلك؛ كنتُ في ذروة الإصغاء دون أن أزعجكم، فالصمت أحيانًا أجمل بكثير من الكلام، وها أنت يا صديقي برفقة صديقتك، تتحدَّث إليها وتتخيَّلها بدوني وكأنها معك، ها هنا على الشاطئ، يا لجمال هذه الساعات من الحديث معها! هيا يا صديقي! انهض وقُد السيَّارة إلى البيت، سيارتك تبعد عنك ما يعادل المائة متر فقط، فلا تضعها كمثل مرات كثيرة سابقة، سفر سعيد...

فقلت له: أريدك أن تهدأ يا عقلي المتحيِّر الثرثار، فأنا أحتاج للهدوء حتى الوصول إلى البيت، لا أخفيك السر، فأنا أريد متابعة الحديث مع صديقتي التي ما التقيت بها منذ البداية، وما تحدثت معها أبدًا، وهي وعدتني بالمجيء لزيارتي، فقط أعِنِّي على أن أتابع حديثي معها، أشكرك، أشكرك.

••••

المجد لا يحارَب يا صديقتي، ومن يُحارِبُ المجد حتى لو يقصفه بطائرات حديثة، أو بقذائف عنقوديَّة ونوويَّة... لن يفلح بتدميره، فالمجد عزٌّ في الحياة لا يباع ولا يشترى، كرامات أكثر من عدد أمواج البحر؛ لأنَّه قطعة نورانيَّة من عند الله –تعالى-، تُخلِّد الذكر الطيب لسنوات، فكثيرًا، وبكل تواضع، ما سمعت من المسنين في بلدي وغيرها، يثنون على أجدادي بالذكر الحسن وعمل الخير، ويترحّمون عليهم لما قدَّموه للمجتمع، حتى بعد وفاتهم بما يقارب المائة عام وأكثر، وهذا كله من فضل الرحمن –تعالى-، يهب المجد لمن يشاء، ويمنعه عن من يشاء، هذه القطعة النُّورانيَّة جبل من نور، قطعة هيبة، فاقت هيبة الأسد، يريدها كل الناس لأنفسهم، تعطيك مكانة مرموقة وذكرًا طيِّبًا وحسنًا بينهم، تُميِّزك عنهم بالكثير من الصفات الطيِّبة، وتُحيي ذكرك وسيرتك الحسنة حتى بعد وفاتك، لا يستطيع أحد أن يُشَوِّهَ هذه القطعة النُّورانيَّة، حتى لو تزايَدَ اجتهاده، بملايين الأطنان من العبوات الناسفة بأقوى المواد المتفجِّرة المعروفة في العالم، فقدرته –تعالى- وعظمته، تفوق كل هذه الأدوات البدائية التي لا تساوي عُشر برومل واحد أو أقل، أمام إرادة الرحمن، فهو يبسط سلطانه وجبروته، ومن علياء ملكوته يرفع من يشاء... يعطي من يشاء... ويعز من يشاء.

وكل ما نريده نحن بني البشر على دروب الشر بصنيعة أيادينا يفشل؛ لأنَّه غير متصل بإرادة العلي القدير -عز وجل- ؛ لأنَّ الله –تعالى- الخير والمحبة والسعادة والفرح والأمل، والإيمان والثقة والنعمة والعطاء والإيثار... وكل ما يدور في مسارات الخير.

نِعَمٌ كُلُّ ما يفرضه علينا... نحن الضعفاء يتوجب علينا أن نتقبله منه برضى وتسليم، دون أي معارضة... حتى لو كان الأمر في نظرنا أمرًا مسيئًا لنا؛ لأنه –تعالى- يختار لنا الأفضل دائمًا... يقدم لنا الأصلح في كل الحالات.

أرواحنا المتناقلة من جيل إلى جيل، تُمْتحن في تعاقب السنين، وما أدراك ما كانت مكانتك الاجتماعية، أو السياسية أو الدينية الروحانية، في سالف الأزمان...

يوم نتَّصل بإرادته ونسعى لإرضائه فقط من خلال أعمالنا الواضحة، على دروب الخير والمعرفة والإدراك والإقرار بسلطانه، والأمر واضح ومعروف لدى الجميع... تحصل المعجزة بقدرته –تعالى-، وحدوث الأمر يتمنَّاه كل أهل الأرض، تحقيق الأماني، وما تحقيق الأماني إلا بالاتصال بإرادة مالك الملك -جل جلاله-، فيتدفَّق الخير المتواصل، وتفيض الفضيلة في قلوب بني البشر، حيث لا يبقى شيء مستحيل، عندها ينقطع البشر عن الخطايا، وتنتهي قبالة الفضيلة الخطيئة.. وتتماهى الروح في جوف الإيمان والعقيدة، فتستقي من فضله ومَنِّه وكرمه كل شيء، هادئةً مستوعبةً سعيدةً.

نحن بسطاء يا صديقتي، صدقيني أني ما نويت الإساءة لأحد منذ أن بدأت الحياة الدنيا، وقد تعود ذاكرتي لمئات الأعوام في أجيال مضت، أتذكَّرها بعقلي الباطني، نعم أتذكر كل شيء وربما بعقلي المتحيِّر الثرثار، ويُعْلِمُني عقلي المتحيِّر هذا أن روحي اليوم بلغت من العمر على الأقل ألفيْ عام... وربما أكثر من ذلك بكثير، فالنظر إلى ملايين السنين للوراء كمن ينظر في عمق ذاته بفهم وإدراك وتَمعُن، فيرى كل شيء في ضميره وذاته، يرى هذا الأنا المشؤوم المتخاذل

البشع القبيح، يقبع في ظل الروح دون أن يتحرَّك؛ لأنَّه سبب كل مشكلات بني البشر؛ لأنه يقوِّي الأنانية وحب الذات، لكن عقلي المتحير لا يتذكَّر ولا يستذكر إلا بضع المئات من السنين، فيذكِّرني بأحداث وقعت قبل ثلاث مائة عام، أنا أعصر كل خيوط البال والذاكرة، ولا أستطع أن أتذكر أي شيء، ربما لأنَّ روحي شاخت إلى هذا الحد، ولكن الروح يا صديقتي في عرفنا لا تشيخ ولا تهرم، تعيش لدهور ولا تتعب، مع العلم حتى عقلي المتحيِّر الثرثار، لم يستطع لمْسها أو الإمساك بها، وبقيت حرَّة طليقة طاهرة نقيَّة... لم تلوِّثها بصمات يد عقلي، أو بصمات يد أي إنسان، هذه الروح التي استطاع جسدي أن يملأ نفسه بها عند الوالدة، حتى قالت له الروح الطبيعة الأم حسبك! هذا يكفيك... فقد امتلأ كل جزء من جسدي، وأشبع بمادة الروح.

أذكر أنَّني في صغري كنت ثقيل الحركة وبطيئها؛ لأنَّ جسدي استصعب حمل روحي الكبيرة، وبهذا الحجم، فهي التي ملأت كل مكان فيه بالخير والنور، حتى أُشبِع من هذه المادة التي لا ترى، ولا تُلمس، ولا يعرف لها مكان في الجسد، ولثقلها كنت أتنقل ببطء من مكان إلى آخر... حتى في لعبي مع أصدقائي، نعم هذا أنا يا صديقتي التي ما التقيت بها من قبل وما تحدثت إليها أبدًا.

هنا قاطعني عقلي المتحيِّر الثرثار قائلاً: اسمع، لقد ابتعدت عن اتجاه بيتك نحو الشرق لمائة كيلو متر تقريبًا... إلى أين أنت مسافر؟

قبّح اللّه وجهك، يا أيُّها العقل المتحيِّر الثرثار، ولماذا لم تخبرني من قبل عند بداية خطئي؟ ما الذي فعلته بي؟ أجبني!

وراح يضحك هذا العقل قائلاً: أولاً: أنا لا أملك وجهًا لتشتمه، واللّه –تعالى- لم يقبِّحني إلا بشيء واحد؛ أنَّه أدخلني لرأسك هذا.

وثانيًا: ألم تقل لي أنَّك تريد الهدوء لتتابع حديثك مع صديقتك، التي ما التقيتَ بها من قبل وما تحدثتَ إليها أبدًا، هذه هي النتيجة من صمتي وعدم تدخُّلي بينكما...

ولكنَّني سافرت في اتجاه واحد نحو الشرق، وكدت أصل لحدود المملكة الأردنية الهاشمية، عمليًّا وصلت... فهذا هو نهر الأردن، وهذه هي مياهه تجري، أصغِ إلى جمال خرير المياه الجارية في جوف النهر، انظر ما أجمل هذه المنطقة في هذا المساء المُقْمِر! انظر كيف أن القمر صار بدرًا يضيء الجبال والسهول والسماء، انظر ما أجملها من طبيعة كونية تجمع كل الأجرام السماوية، والأرض وتعاقب الليل والنهار... على أي حال، أنا لست غاضبًا منك، وأشكرك على عدم مقاطعتي في حديثي مع صديقتي التي تعرفها، أشكرك على الدوام، فلو قاطعتني في المحادثة لما رأينا هذا المنظر الخلاب المهيب الذي أراح نفسي من تعب السفر بلحظة، وجعلني الإنسان الأسعد على هذه الأرض، وأراح فكري البسيط، وراح يعزِّز علاقتي بصديقتي فائقة الجمال.. حقًا هي والطبيعة يقاسان في مكيال واحد، فجمالهما واحد، وتأثيرهما عليَّ تأثير واحد... ولطالما أردت إخبارك يا عقلي المتحيِّر بهذا الأمر، إلا أنَّك ولكثرة ثرثرتك وطرحك للأسئلة تشغل بالي عن هذا الأمر الأكثر أهمية، وتمر الساعات وأنسى إخبارك به، فصديقتي كالطبيعة الأم، تمنح وتعطي، وتساعد وتروي الفكر، وتغذي الروح، وتُنير العقول المظلمة، وتضيء النهار بنور الشمس،

وتضيء الليل بضوء القمر، وتساعدنا على كسب معيشتنا بالتزام، ولا تطلب لنفسها أي شيء.

عندها قهقه عقلي المتحيِّر الثرثار، وقال: عقول مظلمة، هذا خطؤكم أنتم يا بني البشر، لا توجد في هذه الديار ولا غيرها عقول مظلمة، هناك بشر لا يريدون استنارة دروبهم ومسالكهم بنور عقولهم فيتركونها مظلمة، يا حبذا لو تحدثنا حتى عودتنا لبيتك عن استنارة العقل والقلب والروح في الحياة الدنيا... ربما نصل لنتيجة أفضل، فعندنا الآن ساعة من السفر، حتى نصل لبيتك على جبل الكرمل، يمكننا استغلالها.

قلتُ لعقلي المتحيِّر الثرثار: لا تقاطعني في حديثي إذن، وأنا سأتابع الحديث مع صديقتي، وأنت بطبيعة الحال ستسمع الكلام ما بيننا، وآمل أن تفهمه.

مرة أخرى ضحك وقال لي: دعك مني، المهم أن تفهمه أنت؛ كي تشرحه لها.

••••

ثلاثة يا صديقتي في جسد الإنسان، بدون واحد منهم لا يتصوَّر الجسد جسدًا بشريًا، نعم بدون واحد منهم فقط، ربما نملك صورة خارجية للجسد البشري، ولكنَّنا نفقد جميع خواصِّنا الحقيقية كبشر مُستَوْجَدين على يد الله – تعالى- وبإرادته وإذنه فقط، يا سبحانه تعالى، في مشيئته التي تثير الدهشة والعجب في كل شيء، وتتركنا نحن بني البشر حائرين، وعقولنا لا تستوعب ما يدور من حولنا، وقد قرَّرت

الحديث معكِ حتى عودتي لمنزلي، عن هذه الثلاثة المتميِّزة الموجودة بإذنه –تعالى- في جسدنا، وبدونها أو بدون واحد منها فقط، لا يستطيع الجسد أن يتشكَّل كجسد إنسان، الروح والعقل والقلب.

ثلاثة يا صديقتي متعلِّقة ببعضها، ومتصلة، وكأنَّ خيطًا رفيعًا من نور متين، يشد وثاقها؛ كي لا تتحرَّر من الجسد، نعم جسد الإنسان، هذه المقومات الثلاثة معًا، مِنْحَة من نِعَمِهِ – تعالى- للبشر فقط، بالرغم من أنَّ باقي الكائنات لها المقوِّمات الثلاثة هذه، إلا أنَّها تختلف كل الاختلاف عنَّا نحن بني البشر، بكل المقاييس والمعايير والطريقة، عن مقوماتنا وخواصنا وكنه ذاتنا، فتبقى هذه العوامل الثلاثة خاصة ومتميِّزة في جسم الإنسان فقط، وما دمنا نحن بني البشر على هذا الحد من تجاهلنا لأهميَّتها معًا، فلن نفهم أبدًا ما قيمتنا كجهاز يعمل في آن واحد، كل الوقت منذ الولادة وحتى الموت، لكنَّ الرُّوح لا تموت عند توقف القلب عن العمل والعقل عن التفكير، وباقي أعضاء الجسد، فهي تنتقل بقدرته -عز وجل- لجسد بشري جديد آخر يولد باللحظة ذاتها التي مات فيها الجسد القديم، وهي الوحيدة من هذه العوامل الثلاثة التي تنتقل وتتابع مسيرتها في جسد جديد، أما القلب والعقل فلا ينتقلان مع الرُّوح، إلى أي مكان، وتقف مُودِّعتهم قبل خروجها من الجسد، لتأخذ وتحمل كل ما قد حفظ في العقل البشري والقلب، كشريط مدوَّن للجسد الجديد الذي سيحتوي الرُّوح مع قلب وعقل من جديد، وفي الولادة تبث الرُّوح كل ما قد حَمِلَتْ من القلب والعقل من أحداث، للعقل والقلب الجُدد في الجسد الجديد، الرُّوح لا تُحرِّك الجسد البشري باندِفاعَة لعقله وقلبه فقط، كما يظن البعض منا، إنَّها ساكنة للجسد

فقط ولا تحمل معها أي شيء من جيل إلى جيل، ولكنها تحمل وتخزن كل ما يريد العقل والقلب توثيقه من الأمور، وهي التي تبثُّها للجسد الجديد الذي تدخله، ولا تغيب عن الرُّوح أدق التَّفاصيل، وأدق الكلمات في بثِّها للعقل والقلب، ترتاح الروح من الأمور التي خزنتها بعد استفراغها للعقل والقلب، لتكون على موعد لقاء مع عقل جديد وقلب جديد وجسد جديد، لتعطيهم كل المادة التي خزنتها في ذاكرتها على مدار حياة الجسد الذي فارقته، منذ ولادته وحتى آخر لحظة من عمره، هذا هو العمل الأفضل للرُّوح في كل مراحل الحياة الدنيا، منذ ملايين الأعوام، وهي لا تتعب من حمل الأعباء، ولا تطلب الراحة، حتى في نوم الإنسان تبقى الرُّوح ساهرة ترعى شؤون الجسد مع عقل نائم، وقلب يعمل ببطء، في ضخ الدورة الدموية للجسد، كي يتمكن الجسد من إراحة نفسه، هذه الرُّوح الأبدية المتصلة بعلم الغيب، ومسافات ومساحات وزمن نجهلهم، تسرح في كل الكون وتتَّصل بجسدنا، في القلب والعقل بخيط من نور، لِتُمْلي عليهما وعلينا كل ما تُصادفه في أحلام، ربما سعيدة وربما غير سعيدة، والمميز بالتمييز المطلق أحلام اليقظة، أحلام كدنا أن لا نراها لولا وجود الروح التي توحي لنا بها، الروح تحرِّك جسدنا، وتعطي الأوامر للعقل بالعمل والتفكير، والعقل يعطي الأوامر للقلب ولباقي أعضاء الجسد، للقيام بواجبهم؛ كي لا يتوقَّف هذا الجسد، وكي لا يصاب بأذى، فأي تعطُّل لأحد أعضاء الجسد يُحْدِث أي خراب فيه، ومن الممكن أن يهين هذا الخراب صاحبه، لذلك؛ يقظة الرُّوح وحركتها في الجسد، تمنحها خواصًّا متميزة، لا تشابه هذه الخواص أي شيء في العالم، هذه النطفة النورانيَّة غير المرئيَّة، الصامتة المتحرِّكة في الجسد، أَخَذَت على عاتِقِها

المهمة الأصْعب، وهي حماية العقل والقلب؛ كي يعملا بدقة متناهية، وتناغم متناهي، ويوم يتوقَّف يا صديقتي أحد هذه الأعضاء الثلاثة العقل والقلب والرُّوح، ولا أكتبهم بتسلسل الأهمية، فالرُّوح أهمُّهم لكنَّها تحتاج للعقل والقلب في الجسد، لتقوم بواجبها، ويوم يموت العقل أو القلب يموت الجسد، وتتركه الرُّوح وتخرج منه لتدخل في جسد لمولود جديد، صغير آخر لتستمر الحياة، وتستمر هذه الرُّوح في عملها مع عقل وقلب جديدين، الشيء الوحيد في الجسد ليس بجديد، هي الرُّوح، التي عاشت في أدوار الدنيا آلاف وملايين السنين، ولم تُنهِ مُهِمَّتها بعد حتَّى يُنْصَب ميزان العدل، ويأمر الله –تعالى- بيوم الحساب في الآخرة، وهناك توحي الرُّوح بإذنه –تعالى- لعقولنا وأفئدتنا، باستذكار كل الزمن الماضي، المسجل على لوحات الرُّوح وممرِّر للعقل والقلب لبدء عملية الاستذكار بكل التفاصيل التي عشناها منذ الأزل...

يا صديقتي الحميمة، نَظَافَةُ الإنْسان ونقاؤه تَبْدأُ في الرُّوحِ وَالعَقْلِ والقلب، وهذا يؤثر بصورة مباشرة على تصرفاته وحديث لسانه، فالنقاء ينطلق من جوارح الجسد كلها عن طريق اللِّسَانِ، ومن كان كلامه جميلاً ومنطقيًا ومقبولاً على المستمعين، يسمى الصادق الأمين، ولا يحارب كمن يُبَيِّت في قلبه نوايا لا تتطابق مع حديثه، يا صديقتي، إنَّ هذا الوصف لحالة ارتباط الرُّوح بالجسد، مع العقل والقلب، لا تُشَابه أي عملية ربط بين الأعضاء الأخرى، في أي كائن حي، وهذه خاصة ببني البشر فقط، والغريب يا صديقتي أنها خاصة بك أنت أيضًا، فأنت يا صديقتي من جنسنا البشري، وتحملين صفات بشرية أيضًا، وكل ما حدَّثتُكِ به عن العقل والقلب والرُّوح،

يخصكِ أنتِ أيضًا بصورة مباشرة في كل شيء... فتذكَّري كلماتي... إنْ تعطل العقل، وهذا ما قد أصاب العرب في الشرق الأوسط وغيره، فما قيمة باقي الأعضاء، حتى لو تابع القلب عمله، فالجسد لم يبقَ على حاله، فإمَّا يصبح الإنسان أشبه بنبتة جماد، قلبه يعمل مع باقي أعضاء جسمه، أو يعيش من دون عقل يتنقل بيننا، يأكل ويشرب ويخرج بوله وبرازه ويسمن... وليس لهذا الجسد أي قيمة بين الناس؛ لأنَّ بني البشر اعتادوا المظهر الصحِّي الجميل الحسن، أو أنَّهم رسَّخوا في عقولهم ونفوسهم المناظر الجميلة والمظاهر الحسنة التي يريدون أن يتقمَّصوا بها، لكنَّ هذا الأمر من الصعب الوصول إليه لأن الله -عز وجل- خصَّنا في كلِّ هذه التفاصيل، رغمًا عن أحلامنا، فأحلام الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، كادت لتبيد العالم لولا مشيئته –تعالى-، وتدخُّله بلطفه وعنايته لمنع هذا الأمر من الحدوث؛ لأنَّ هذا الفيلسوف نيتشه الذي أحترمه كإنسان، رفض في جلِّ أفكاره، المثالية الأفلاطونية والمسيحية، وجميع الأديان... كما رفض الميتافيزيقيا بشكل عام، واتبع النمط الأخلاقي الصائب في فكره، وهو النمط الإغريقي الذي كان يمجد القوة والفن والجمال، حتى لو كان مصطنعًا، ويستخف بالرقّة والنعومة، وطيبة القلب التي رآها من صفات المسيحيَّة وتنكَّر لها، جَسَّد في عقله كونًا يخلو من الإنسان البشع، والإنسان المعاق جسديًا، والإنسان الذي ينتمي لمجموعة ذوي الاحتياجات الخاصة، ويتعلّق بالآخرين على مدار الساعة، والإنسان المصاب في عمله أو من جراء خدمته بالجيش، فهذا الفيلسوف ناشد العالم المتحضِّر بفكره، من أجل التخلُّص من هؤلاء البشر الذين هم عبء على الإنسانية، ويقفون سدًا منيعًا على طريق تطوُّر

وتقدُّم البشرية برأيه، ومن هذه الأفكار التي كادت تقضي على نصف البشرية، بين أناس ذوي احتياجات خاصة وأناس قَبِيحي الشكل والمنظر، ومصابين في عملهم أو خدمتهم العسكرية...

هذه الأفكار تعلمها وتعلق بها بشكل استثنائي، أدولف هتلر الرئيس الألماني، السياسي الألماني النازي، الذي ولد في النمسا في شهر نيسان ١٨٨٩، وكان زعيم ومؤسس حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني، والمعروف باسم الحزب النازي، حكم ألمانيا في الفترة ما بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٤٥ حيث شدَّته في بادئ الأمر أفكار هذا الفيلسوف المدمِّرة للبشرية، والذي نادى بإسقاط القيود الاجتماعية في سبيل الحريَّة المطلقة للإنسان، ونادى نيتشه بإسقاط الأعراف الدينيَّة، ووضع العقل في مركزيَّة الأمور كلِّها، وتَبنَّى هتلر الكثير من هذه المبادئ التي أثَّرت به إلى درجة كبيرة، ولكنَّني أعترض على هذه الأفكار التطرُّفيَّة، وأقول دائمًا: على الإنسانيَّة والمجتمع الحضاري المعاصر الذي يريد نشر السلام والثقافة والتعايش السلمي، بين كل الشعوب والأمم، أن يحمي نفسه ويدافع عن نفسه بشتى السُّبُل، من التطرف السياسي والفكري، ويوم لا ينجح هذان التطرّفان بإبادة كل ما هو مختلف عنك بالرأي والفِكْرَة... تبدأ الحرب على خلفية التطرُّف الديني، والتطرُّف بحد ذاته ومن كل الأنواع في المستوى العالمي الدولي، يشكِّل الخطر الأكبر على استمرار وجود بني البشر على هذه الأرض... خاصة التطرُّف الديني؛ لأنَّه يُفْقِدُ المؤمن إيمانه بكل ما في الجملة من معنى...

ونعود يا صديقتي للزعيم الألماني هتلر، فهو الذي وضع خطَّة لقتل جميع الأطفال المعاقين عقليًّا وبدنيًّا في مجتمعه، ليتبعها في مرحلةٍ لاحقة بقتل البالغين المعاقين، إذ على حد تعبيره: كان يريد أمةً معافاة، وكأن الله -عز وجل- خصَّه بهذه المهمَّة المستحيلة لبدء تنفيذها، ومن ثم أصدر الأوامر بشأن الحياة للشعب الألماني أو للشعوب التي تتحدَّث الألمانيَّة، والشعوب الراقية العريقة فقط، وبادر بإنشاء جهاز كبير للتخلُّص من بعض الشعوب التي عاشت في أوروبا كالشعب اليهودي مثلاً، وما زالت المحارق ومعسكرات التعذيب والإبادة موجودة حتى يومنا هذا كشاهد على التاريخ، كيف للعقل البشري أن يبني جهازًا يعمل دون كلل أو ملل ليل نهارٍ على مدار الساعة بهذا الشكل، يَعدُّ كميَّة البشر الذين تخلَّص منهم بأبشع الطرق يوميًا، ويُقِيم الجلسات لتطوير عمل هذا الجهاز في المعسكرات لزيادة ناتج إبادة البشر...؟!

أنا يا صديقتي بالرغم من سعة تفكيري وانفتاحي على عادات الشعوب والأمم في العالم، وقرأت في حياتي حتى الآن ما يقارب سبعة آلاف كتاب، لا أستوعب أي شيء حدث على تلك الأرض، إبادة للبشرية من أجل أمة واحدة معافاة! لو أراد الخالق رب العباد يا صديقتي، لجعل كل بني البشر متشابهين، أو لجعلنا نحن جميعًا أمة واحدة لا غير، فكيف يصل إنسان في تفكيره العقلاني لقرار في هذه الخطورة، يدرس ويفكِّر ويرسم الخطط ويبدأ العمل والتنفيذ، ويبيد بني جنسنا بشكل مبرمج...! أي بشري يجب أن يكون صاحب هذا العقل، لقد بدأ التنفيذ بأناس مستضعفين من بلده، لا قدرة لهم على مواجهته، أو مواجهة جيشه الذي تلقَّى أوامر صارمة للتنفيذ الفعلي وباشر العمل، وكان الجندي العادي والضابط

بأعلى المستويات، مقتنعين مائة بالمائة بأنَّ هذا الأمر هو الأفضل للتنفيذ من دون أي تردُّد أو تساؤلات، وبدأ عمليَّة الإبادة في الشعب اليهودي، لم تكن هناك دولة لهذا الشعب لتحميه، أو جيش يدافع عنه، ولم يكن لهم أي وطن قومي، وكانوا منتشرين ومتفرِّقين ومشتَّتين على مساحات القارة الأوروبية، وباقي دول العالم، ما أصعب الشتات حين لا يمتلك العقل القوة على التفكير، شرَّدهم هذا الفكر أكثر، وشتَّت شملهم، والبلاد التي احتلها هتلر في الأشهر الأولى للحرب، عملت واجتهدت في تنفيذ خطَّته، وأقيمت على أرضيها معسكرات للتعذيب والإبادة، ويوم تتعطَّل هذه المعسكرات، كانوا ينقلون الآلاف ومئات الآلاف بالقطار، لمعسكرات أخرى؛ كي لا تتوقَّف أو تتعطَّل عمليَّة الإبادة... أو كي لا يكون هناك أي تأخير بتنفيذ وإنجاح هذه الخطَّة، غير الإنسانية، كان الإنسان هناك مجرَّد رقم، فسجلت الأرقام على أجساد بني البشر اليهود المُعدَّين للمحرقة، وتتبع خطة التنفيذ رقابة صارمة متواصلة، لزيادة أعداد البشر الذين يرسلون للمحرقة ويتم التخلُّص منهم، وفي هذه المعركة غير الأخلاقية، حرق غير اليهود أيضًا، من جوَّالين على طرقات دول أوروبا وقبائل الغجر، لم تكن لهاتين المجموعتين البشريتين أي أهميَّة إنسانيَّة للزعيم هتلر (كما أطلق على نفسه: الزعيم) والشعب الألماني.

تساؤلاتي لن تنتهي حول إنسان ذلك العصر، المنفذ للأوامر الصارمة البشعة، أي مقومات يجب أن تكون للعقل البشري؛ كي يباشر ويبدأ بتنفيذ مثل هذه العمليات؟

كيف للعقلاء في الشعب الألماني وشعوب وأمم العالم أن

يوافقوا على مثل هذا المشروع؟

عمليَّات مبرمجة لإبادة شعوب الأرض...

لكن إرادته –تعالى- فوق كل شيء، فبإذنه جمع شمل أبناء الشعب اليهودي، وبقدرته أعاد أبناء هذا الشعب في منتصف القرن المنصرم إلى أرض الميعاد أرض إسرائيل، وأقاموا لهم عليها دولة ووطنًا قوميًا خاصًا بهم، هذه هي المعجزة الأكبر في هذا الوجود، يخلق الله –تعالى- وبإذنه شيئًا من لا شيء... لم يكن للشعب اليهودي في حينه أي قوة، ولا يملك أي مقومات دولية عالمية، شعب مُشتت مهزوم منكسر خرج من أزمة الإبادة وتشرد أكثر... لكن إرادته –تعالى- جاءت وحسمت أمره دون أي مشكلة، يا لقدرته ساعة يقول للشيء: كُن فيكون.

من المؤكَّد أنه لو نجح مخطَّط هتلر هذا مع الشعب اليهودي، وطبعًا على المسار الزمني لتلك الأيام، ولو لم تنتهِ الحرب العالمية الثانية بانكسار الجيش الألماني، وإزاحة النازية عن الحكم، لقُضي على الشعب اليهودي بالكامل، في المناطق التي سيطر عليها الجيش الألماني في حينه، وانتقل بطبيعة الحال، لشعب مستضعف آخر، ففي جعبته كان مرسومًا، لإبادة كل ما هو ليس من الشعب الآري العريق، وليس من أمته المعافاة، فالشعب الآري هو الشعب الذي يجب أن يعيش على الأرض، دون ما سواه، وهذا خطأه الفادح في هذا الفكر، فلو قضى على عقول البشر، لقتلت البشر نفسهم من دون أي مشكلة وبقي الشعب الآري وحيدًا في هذه الديار، أو لو أسعد هتلر هذا البشرَ حتى إشباعهم لدرجة الغبطة من الفرح والسرور ملء القلب، لما تحملت قلوبنا نحن بني البشر هذه السعادة العارمة، ولقُضي علينا

بالنوبات القلبية من شدة الفرح والغبطة والسعادة، فشيء واحد ينقص جسدنا من الثلاثة التي تحدثت عنها، لا يبقى الجسد جسدًا، القلب والعقل والرُّوح... أما الروح التي في جسد كل إنسان فقط، ولا تُماثلها أي روح أخرى في جسد أي كائن حي آخر، فهي ومضة نور من عند الله –تعالى-، ولا يعرف كنهها إلا هو وحده الله -جل وعلا-، وهل لعبد أن يحارب باريه، كان على هتلر هذا القضاء على كل أهل الأرض باستثناء شعبه كما قال، عن طريق تعطيل القلب أو العقل في الجسد، ربما كان ليفلح وينجح في مخطَّطه، أما محاربته للروح فكأنه بحالة شاذة جدًا، فهو لا يحارب الإنسان، وإنَّما يحارب الخالق، وهذا المشروع باء بالفشل بفضله ورحمته -عز وجل-، ولن ينجح أي مخطَّط مماثل في المستقبل، هذا الخطأ أوْدى بحياة الملايين من بني البشر، ملايين الأبرياء العزَّل من السلاح، حتى من أبناء شعبه، الذين آمنوا بهذا المخطَّط غير الإنساني، غير الأخلاقي، التافه...

وأنا منذ سنين طويلة أحاول أن أجد مفردات وتعابير تناسب هذه المشاريع غير الأخلاقية، غير الإنسانية، لكنَّ أفكاري تتشتَّت وتنهار كلَّما ظننت أنِّي اقتربت من الوصول لتعابير مناسبة تجمع النقيضين، حضيض العالم بقمة التفكير، ولا أجد أي تعبير مناسب، لمنظومة سلبية إلى هذه الدرجة، تسعى للإبادة البشرية من أجل ظنِّها أنَّها المجموعة البشرية الفُضلى على هذه الأرض، فيبقى يا صديقتي الحضيض حضيضًا مهما ارتفع، لا يراه أحد، وتبقى القمم قممًا مهما انخفضت وصغر حجمها، يراها كل البشر.

آه من هذا التفكير المُضْني إلى درجة التعب والإرهاق، هذا التفكير يُتلِف صحتي... كما أتلف هذا التفكير راحتي، مزق أعصابي..

تَعِبٌ أنا... تعب يا صديقتي من السفر، والحديث والتفكير وقلَّة النوم، فبعد أن تتركيني على باب غرفتي لأنام، يحصل كمثل ما حصل في الليلة الأخيرة، أبقتني همومي التي أحملها وأفكِّر فيها يقظًا حتى ساعات الليل المتأخِّرة، أنا يا صديقتي الإنسان الوحيد على هذه الأرض، الذي يحلم بهموم الآخرين إلى جانب همومه، فيزورني النوم بعد إرهاق وتعب شديد، في الساعة الرابعة والنصف صباحًا، واستيقظت في تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا من نومي العميق، لأسافر لعملي في الساعة السابعة إلا ربعًا، وأبدأه كالمعتاد في تمام الساعة السابعة والنصف، أنا أعمل من الساعة السابعة والنصف، وحتى الرابعة بعد الظهر، باستثناء يومي الجمعة والسبت، حيث أجهد نفسي بالتفكير، وأفرغ كل وقتي لهذا الأمر بالذات، نعم يا صديقتي، أفكر لساعات طويلة متواصلة دون أن أنام، وفي الأسبوع الماضي قضيت ليلتي الجمعة والسبت صاحيًا مفكرًا بكل شيء، ليس المهم أن أفكر بشيء ما محدَّد، المهم أن أفكر... لذلك؛ أنا تعب أحمل هموم الدهر على ظهري وكتفي، وأسافر إلى البعيد البعيد...

أنا أتعجب من نفسي، كيف يستطيع عُنُقي حمْل رأسي وعقلي، وفيهما كل هذا الثقل من الهموم، كل هذا الكم الهائل من التفكير، ولا أدري كيف يستطيع قلبي النبضَ، تحت هذه الأعباء والأثقال، فلو وزنَّاها بميزان للأطنان فقط، قد نكتشف وزنها الحقيقي الذي يصل لملايين ملايين الأطنان، لاحظي يا

صديقتي أن قلب الإنسان، لا يعمل لو ضغطناه بثقل ثلاثمائة كيلوغرام أو أقل من ذلك، فكيف يعمل هذا القلب الذي أحمله؟ أنا لا أفهم! أنا لا أدري أبدًا! وهذه معضلة للتفكير، وروحي التي ملأت جسدي والمساحات المربعة من حولي بملايين الأميال، كيف لهذا الجسد الضعيف النحيل، أن يحمل كل هذه الهموم بملايين الأطنان، وينام لساعتين تقريبًا ويتابع عمله، وينجح في كل مسارات الحياة؟

على فكرة، لقد كان عملي متعبًا جدًا هذا اليوم بالذات، وسافرت لشاطئ البحر، وقمت برياضة الجري والمشي بعد العمل، وعقلي يطرح عليَّ آلاف الأسئلة، وعدت لسيارتي وسافرت، إلا أني أخطأت في الطريق، ولم ينبهني عقلي المتحيِّر الثرثار، أني ابتعدت عن منزلي لسفر ساعة بالسيارة بسرعة ستين ميلاً في الساعة، ماذا أفعل في يوم الغد في العمل؟ وكيف سأستيقظ وأنا في مثل هذا الجانب من التعب؟ والساعة الآن... كم الساعة الآن؟ وعندها أجابني عقلي المتحير الثرثار: إنَّها الثانية بعد منتصف الليل، قبح الله –تعالى- وجهك من عقل ثرثار متحيِّر! قلت له، هذا يعني أنني سافرت بسيارتي لمدة ثلاث ساعات متواصلة، وأنا لم أفهم لماذا الشوارع خالية من السيارات والمسافرين، ولم أنتبه للمسافة التي قطعتها في ثلاث ساعات، وأنا لا أعرف في أي مكان أنا الآن، وعلى أي طريق؟

هذا هو عقلي المتحير وكثير الثرثرة يا صديقتي، يتأخر في تنبيهي عن حدوث الأمور، فتارة أسافر شرقًا، وتارة أسافر غربًا، وأنحرف جنوبًا، وهو يعلم جيدًا أنَّي كثير الأخطاء في معرفة المسافة وتعريف الزمن، وحفظ جغرافية البلاد، قل لي ماذا

أفعل بك؟ وها أنا أسافر وأسافر من دون توقُّف... لفتت انتباهي يافطة على قارعة الطريق، كتب عليها تل السبع، وعلى يافطة أخرى وراءها كتب تل السبع عشرون كيلو متر، يا للهول لو رجعت الآن لبلدي في الشمال، لوصلتها في تمام الساعة الخامسة صباحًا، سأنام لساعة ونصف هذه الليلة، وأستيقظ في السادسة والنصف لأذهب لعملي، أتفهمين يا صديقتي مدى تعبي ومعاناتي، ولماذا أنا تعب إلى هذا الحد الذي حدثتك عنه؟ عقلي يُتعِبني بالتفكير، وقلبي يُتعِبني بنبضه وبما ينطوي عليه في كثرة نوايا الخير للآخرين، وروحي تُتعبني بما تحويه من أمور لا تمت إليَّ بصلة، من أي جهة كانت، لا حول ولا قوة لي، هذا هو حالي...

عقلي يقرقع في رأسي، يقول: أنت الذي طلبت مني الهدوء، والإصغاء إليك في حديثك مع صديقتك التي ما التقيت بها أبدًا وما تحدثت معها منذ البداية، وما كان مني إلا أني نفَّذت طلبك بحذافيره، ولم أقاطعك كمثل المرة السابقة، بعد أن ابتعدت لساعة سفر كاملة نحو الشرق... نعم يا عقلي المتحيِّر الثرثار، ولكنني ابتعدت في هذه المرة لثلاث ساعات متواصلة، من السفر نحو الجنوب، وأنا لا أشعر بالفرق الزمني، من مروره بسرعة، وأنت تعرف وصديقتي الحميمة تعرف أني متعب جدًا، وأنا لا أتتبع المسافات، ولا يهمني الزمن بشيء، وأنا غير مطَّلع على جغرافية البلاد، ولا أتذكرها.

انظر يا عقلي المتحيِّر الثرثار إلى الخارج، إلى السماء، وتحقق، ما أجمل الليل هنا! ما أجمل النجوم! وكأني لم أرها من قبل، ولم أر سواد الليل هذا في أماكن أخرى، أو منذ ولادتي، ما أجمل الليل هنا! لو لم يتوجَّب عليَّ المثول للعمل في يوم

الغد، أقصد اليوم لقضيت الليلة ها هنا؛ لأتمتع بهذا الليل الجميل، انظر! وكأنه ثوب مخملي أسود يطير مع الريح...

هوّن عليك يا عقلي، كان عليك أن تُنبِّهني حالما رأيتني أبتعد عن مداخل قريتي، ولكن القدر بإرادته –تعالى-، أرادنا أن نصل إلى هذا المكان، وفي هذه الساعة بالذات، لنستمتع بالحديث المستطاب معًا، وبالطبيعة الأم هنا، في هذا المكان، نعم في هذا المكان.

أجابني عقلي: حسنًا في المرة القادمة، سأقاطعك وأنبِّهك وربما أصرخ في رأسك، حتى تسافر في خط سفرك السليم، والآن عُد من حيث أتيت، وأنا سأدلك على الطريق، ولن أسمح لك بالخطأ.

شكرًا يا عقلي المتحيِّر الثرثار، أشكرك أشكرك، ولا تتركني أغفو أو حتى أسهو للحظات، أو أشرد في تفكري في سفرنا حتى وصولي إلى البيت، أنا أعدك أني لن أتحدث مع صديقتي حتى المساء القادم، فأنا مُتعب، متعب، رافقني كل الوقت، لا تسمح لي أن أضل الطريق إلى البيت، لا تسمح لي بأن أغفو وأنام إلا على سريري وفوق وسادتي... أشكرك.

••••

بدأت يومي كالمعتاد بعد أن وصلنا بخير إلى بيتنا، عقلي المتحيِّر الثرثار، رافقني وساعدني ونفَّذ كل مطالبي، لم يسمح لي بالنوم أثناء السفر، وقدت السيارة كما يجب، ولم يسمح لي بأن أضل أو أن أخطئ في الطريق، ووصلنا معًا بسلام وأمان إلى منزلنا، دخلت غرفة نومي، وسرعان ما استلقيت على

سريري، وخلدت للنوم كما قلت لكم في تمام الساعة الرابعة والنصف صباحًا، نمت ساعتين، وإذ بمنبه الساعة الذي لم يغير موعد عمله، يرن بصوت مرتفع عال ومختلف هذا الصباح، يُنبِّهُني وبشدة للنهوض معلنًا بداية يومي.

هذه الساعة لم تتغير منذ أكثر من عشرين عامًا، ولم تتوقَّف عن العمل بدقَّة متناهية، يا للعقل البشري كيف تخاله يصنع هذه الآلات لمصلحتنا نحن بني البشر، هذه الآلات التي تساعدنا على ترتيب يومنا وحياتنا بدقَّة، المهم أن نستغلَّها لمصلحتنا من أجل أن نرتب حياتنا بما فيه الخير للصالح العام، أنا لم أصلحها منذ أن اشتريتها، أغير لها البطارية الكهربائية التي تشحنها فقط، وهي عبارة عن خزانة صغيرة مُجمَّعَة من أجزاء تعمل كيماويًّا، يُؤخذ منها التّيَّار الكهربائيُّ، كالبطّاريّات التي تُستعمل في السَّيَّارات وبعض الأجهزة الكهربائيَّة والمصابيح وباقي الساعات، وهي أنواع عديدة، في داخلها مجموعة من الخلايا الكهربائية، يتولَّد عنها التيَّار الكهربائي من تفاعلات كيميائية، لتتمكن الساعة من استغلال الطاقة الكهربائية المكنونة داخلها، لتعمل دون توقف... هذه الآلات التي يصنعها الإنسان فيها من أوجه الشبه بالبشر بعض الشيء، فهي تستغل شيئًا ما لنفسها من أجل عملها، وهذا ليس بالشيء السيِّئ، وإنَّما هذه الأمور تعجبني؛ لأنها إيجابية جدًا، هي تستخدم الطاقة من البطارية، وأنا أستخدمها لمعرفة الوقت، فإذن، نحن متشابهان، وتفكيرنا واحد بالرغم من أنَّ البطارية لا تملك العقل كمثلنا نحن بني البشر لتتحرَّك، وتتنقل وتسافر مثل سفري أنا مثلاً إلى آخره... فكل صانع يصنع أشياء شبيهة به، تمامًا مثلنا نحن بني البشر، فنحن صنيعة يد العلي القدير -عز وجل-، بَثَّ في

أرواحنا وقلوبنا وعقولنا، بعض النقاط من الصفات الحميدة التي يتمتع بها بكثرة غير متناهية، فما عنده -سبحانه وتعالى- لا يُمكننا حصْره في وعاء أو شيء ملموس، ولا يُمْكِننا وصْفه بأي شيء، هو العلي القدير على كل شيء، ونحن عبيده –تعالى- لا يُمْكِننا فهم قدرته ونِعَمِه وخيره الفياض المتواصل، وفضله علينا منذ ملايين السنين، فخيره الأزلي يغمر كل ما هو مياه وأرض يابسة وسماء بشكل أبدي، وأنت يا عقلي المتحيِّر الثرثار لم تستطع فهْم هذه الأمور حتى الآن، بالرغم من أنَّك تشير إليَّ أنَّ روحي الأبديَّة متعلقة بتواصل مستمر بنور أبدي، إلى عمق السنين، أقصد ملايين السنين...

هذا حالنا نحن بني البشر، نفهم بقدر حجم أرواحنا وقدرة عقولنا على التفكير، وبقدرة ما تتمكَّن قلوبنا من حمله من المسائل والمعضلات لتفتح الكثير من الأبواب بحدس مستمر، ومن دون تفكير أحيانًا، فما حاجتي بِكَ أيها الثرثار المتحيِّر، أن ترافقني إلى هذا الحد في كل شيء في حياتي، وأحيانًا كثيرة تعيق عليَّ صفوة البال وهدوء الروح ومحبة الفؤاد... ألم تفكِّر بالصمت أحيانًا بدون أن أطلب منك، شكرتك وما زلت أشكرك، على مساعدتي ليلة الأمس بالوصول إلى بيتنا في الساعة الرابعة والنصف صباحًا، نعم الوصول من الجنوب كان صعبًا جدًا، ولكنَّني وصلت، نحن الاثنان الملتصقان ببعضهما المترافقان، والروح والفؤاد، لا يمكننا الابتعاد عن بعضنا، نحن صنيعة يد الخالق -عز وجل-، وعلينا المحافظة على بعضنا في هذا الجسد الواحد، حتى يأذن لنا الخالق مالك المُلك، بترك ما نحن عليه هنا، والافتراق... وربما الانتقال إلى مكان آخر وحياة جديدة.

••••

لماذا وُلِدْتُ هنا؟ وفي أقطار الأرض ملايين الأميال المربعة، ومنها ما لم يُكتشف بعد، بالذات هنا تَعِبَتُ جدًا، والروح في سبات عميق مسجونة في قفصها الصغير، القلب نائم في مهْده سجين، كُتِبَ له أن لا يخرج من بين أضلاع الصدر، والعقل من نوم القلب لم يستفِق...

قُلْتُ يومًا بعد أن أثبت نظريتي على رائحة طعام فاسد كان في سيارتي، سأقص عليكم القصة لاحقًا: تستطيع أشعة الشمس أن تُطهر كل الروائح الفاسدة... ولكن من يُطهِّر قلوبنا، وينقي عقولنا التي لا تراها الشمس؟

فوصلت لنتيجة واضحة، الابتعاد عن الخطيئة، والتشبُّث والتقرُّب والالتزام بالفضيلة، عندها تُنار عقولنا بنور الرحمن، وتسكن قلوبنا محبته فقط، ولا نقضي حوائجنا وحوائج الآخرين إلا بإرادته، جمود في عيون كل بني البشر، من الحسد والكراهية والحقد، هذه الصفات لا تُفيدنا بأي شيء، وعلينا التخلص منها وطرْدها من العقل والقلب والروح، لتحسين أمرنا في اتِّباع الفضيلة.

أشعر أحيانًا وكأن هناك شخصًا يركض خلفي، يرافقني كمثل ظلِّي على كلِّ طريق، هو الحسد والحقد والكراهية... هذه الصفات صَنَعَت قساوة في القلوب على كل دروب الخير، هي الخطيئة تحارب الفضيلة، ومنا من لم يعرف مساوئ الدنيا والخطايا، ومنا من أقام للفضيلة في كل يوم منبرًا، وراح بعطف قلبه وحنان فهمه، وطيب روحه، يوزع من حواسه وخواصه الطَّيِّبة التي ازدحمت بالخير من عند الله –تعالى-، على كل بني البشر، كلُّنا خطَّاؤون، كلُّنا مذنبون... لكن العلي القدير يقبل التَّوَّابين ويقبل العائدين إليه -سبحانه وتعالى-.

يخطر ببالي أسئلة، لطالما ضايقتني في تصرُّفات بني البشر، المتصرِّفين على عكسها تمامًا.

لماذا لا نُعلِّم بعضنا في هذه الحياة الدنيا، كيف سنعيش في نعيم الآخرة؟

لماذا لا نعيش حياة من نور وشفافية؟

لماذا لا نروِّض أنفسنا لعمل الفضيلة والصَّالحات؟

نعم نعم هي الفضيلة دون ما سواها، فبسبب حب الحياة والتَّعلُّق بالدنيا، نسينا الآخرة، الروح تحمل على لوحاتها أحداث ملايين السنين، لتغذِّي العقل والقلب معًا من مخزونها التي حملته بقدرته –تعالى-، نسينا الموت لفترات ربما طويلة، بالرغم من مشاركتنا بعزاء الكثيرين، ويذكِّرنا بوق المنادي أن أحدهم فارق الحياة الدنيا هنا، ونفهم نحن العقلاء، وهم ما عرفوا وما فهموا، إنَّه لم يفارق هذا الوجود وإنما فارق المكان... وانتقلت روحه بإذنه –تعالى- لمكان آخر، الأرض واسعة فيها متَّسع للجميع، المكان شاسع وفيه طبقات ومساحات لم نَدُوسها نحن بني البشر ولم ندخلها، هناك متسع ليدفن كل أهل الأرض، ويبقى مكان فارغ، لأعداد مماثلة بملايين ملايين الأضعاف من بني البشر، لتدفن هناك ويبقى مكان لأضعاف ملايين الملايين الأخرى، لكننا نتقاتل ونتحارب وتزهق أرواح كثيرة، من أجل الأرض، فنقدِّس الأرض والمكان ونستبيح الروح والحياة، نعم الروح والحياة اللواتي وهبنا إيَّاها الخالق أكرم الأكرمين –سبحانه-، والأجدر بنا أن نعكس الأمور في هذا الموضوع بالذات، فنقدِّس الحياة لا الأرض ولا المكان؛ كي نصنع السلام بين جميع بني البشر، ونحافظ على الجوهرة الثمينة التي أعطانا إياها من مَنِّهِ وكرمه الخالق العظيم، هذه

الجوهرة الخالدة، هذه الرُّوح التي تحرِّك فينا كل شيء بأمر مسبق، يحرِّكها الخالق لتكون طوع أمره أبدًا، فتنفِّذ كل ما يطلب منها دون معارضة أو سؤال، يا ليتنا نكون مثل أرواحنا، لننفِّذ كل شيء يأمرنا به العلي القدير -عز وجل-...

تَخَيَّلِي يا صديقتي أننا نتصرَّف كمثل الروح في الجسد، نعرف الأمور قبل وقوعها، ونَتَفَرَّس حينها في عِلْمٍ كان لنا بابًا مغلقًا مسدودًا حتَّى الآن، فأنا يا صديقتي أعتمد على حدسي الخاص في الكثير من الأمور، فالنطفة الأولى للفكر في الحدس الخاص، هي الأصح من بين كل الإمكانيات الواردة أمامنا؛ لأنَّها اختيار الروح، الروح هي الطبيعة الكونيَّة، الدالة على الأمور الأصح والأصوب، والطبيعة الكونية الأم أقوى من كل شيء، حتى من حدة ذكاء عقلنا، وهي لا تخلط الأمور ولا تخطئ، من في داخله الشر والظُّلمات، يعانق الشر والظُّلمات، ومن في داخله الخير والنور، يعانق الخير والنور، والأنا الفاسد يتخلى عن الخير والنور والسعادة، ويسير في مصافي الشر والظُّلمات لا محالة، ويوم نَلْغِي هذا الأنا الفاسد، من أرواحنا وأنفسنا، نتواضع أكثر، ويبقى لنا الخير والنور والسعادة، ودروب الأمل المفتوحة أمامنا بكل ما هو صواب وخير لنا...

تذكري يا صديقتي أن الشيء إلى أصله يعود، والطبع يغلب التطبع، وعلينا تنفيذ إرشاد الرُّوح حتَّى لو تدخل العقل، فَتَدَخُّل العقل هنا يبلبلنا فقط، ويخلق جوًّا من التردُّد والتشتُّت بين الروح الصواب، والفكر المستوحى من العقل، تَخَيَّلِي يا صديقتي التي ما التقيت بها أبدًا وما تحدثت معها من قبل، أننا نتصرَّف كمثل الروح، هذه الروح ومضة نور وجوهرة نادرة في أجسادنا، وهي تنير عقولنا، وتساهم في

نُطقنا بالأجمل، وما يظهر لنا هو ما يقوله اللسان، وما يتصرَّف به الجسد بعد تفكير العقل، وإذا أردنا أن نُطَهِّر نفوسنا من الدَّاخل، من كنه الذَّات، علينا ترويض النَّفس وتحجيمها، على نية الخير؛ كي يقوم الجسد بالعمل الصالح الأفضل، وعندها لا يبقى شيء أمامنا مستحيلاً.

تَخَيَّلِي يا صديقتي عالمًا نقيًا، كلُّ ما فيه صواب من أكبر الأمور وحتَّى أبسطها وأصغرها، نعم صواب من دون أيِّ خطأ، هكذا نحاول تجهيز أنفسنا لنعيم الآخرة، تَخَيَّلِي أننا نتصرَّف كما الرُّوح، فكم من نور وهَّاج سينطلق في آنَّ واحد من وجوه كلِّ بني البشر، سَتُنار كلُّ الدُّروب بالخير، حتَّى يصعب علينا أن ينظر الواحد لوجه الآخر، هذا النور الروحاني المُشع من وجوهنا، سيبهر الناظر وسيخيِّم ويهيمن على الأرض والمكان والزمان، يُغطي كلَّ شيء بالخير المتواصل، وتبقى الفضيلة والنور فقط، ولا يبقى للرذيلة والخطيئة أيُّ أثر...

هذا ما نحتاجه في حياتنا على هذه الأرض، الخير المتواصل والفضيلة والوضوح والنور، وكأنَّ باطننا مكشوف كظاهرنا، يا ليتنا نستطيع أن نعيش هنا هكذا يا صديقتي، بكل هذا الكم العظيم الهائل من الشفافية والوضوح والنور، وبكلِّ الخير المتواصل والفضيلة الناضحة من العيون من القلوب، بكل النوايا الحسنة ومسالك التوحيد للباري -عز وجل-، بعيدين كلَّ البعد عن الغموض والظُّلمة والظَّلام الدامس والرَّذيلة والخطيئة... وبهذه الصفات، ننتظر ها هنا حتى قدوم الأنبياء، ليُنصب للعدل ميزان، يُثبِّت العقيدة في عقولنا وقلوبنا وأرواحنا للأبد في جنة النعيم السرمدي.

# قدوم الأنبياء

أتألم لألمكم إخوتي في كل مكان
فكيف تريدونني أن أصبر
على جوعكم وجراحكم النازفة

••••

متمرد على الحياة أنا
متمرد على الظلم
على الزور والبهتان
فما عَسَايَ أفعلُ...؟

••••

وحيدٌ بين الجدران
وحيد في مغارة
لا يدخلها نور الشمس
ولا هواء الكرمل وجبل السماق
ولا حتى نور مصابيح الجليل
ورياح صنين...
ماذا أفعل بحكمة رسخت
في العقل والفؤاد...

ماذا؟
ماذا أفعل بروح تقمَّصت
وتعلَّقت على أبواب السماء
روحٌ انشطرت تمزَّقت
على دروب الأحبَّةِ فأنهكها الانتظار...
لم أزل أنا صاحب الروح
والجسد الذي توارى مئات المرات
النفس هي النفسُ ما تغيَّرت
وما ضاعت منها غفلة الصباح
وانتظرت وما زلت في انتظار قدوم الأنبياء...
ولقاء الأحبة الأبدي
والمثول بين يدي الرحمن
ما زالت الروح تنتظر
في كل الأدوار
وترتجي خاشعة طلب اللقاء...
لقاء الأحبة... من أهل الأرض
على بوابات سور الصين
وأهرام مصر...

غريب أمر هذه الليلة، لم أفكر بأحداثها من قبل، ولم أستطع الخلود للنوم حتى بعد الساعة الرابعة قبل الفجر كعادتي، إنَّه أمر عجيب، وكأن شيئًا غَيَّرَ بيولوجيا حياتي وبرمجة جسمي التي اعتدت عليها منذ زمن بعيد بعيد.

أذكر تلك الأيام في فترة دراستي في المدرسية الثانوية، كنت أنام في ساعة متأخرة، وأستيقظ في ساعة مبكرة جدًا، وكان والدي -رحمه الله تعالى-، يبتسم حينها، ويقول لي: إنك استيقظت قبل صياح ديكنا «أبو سبع»، كان قد اقتناه لبعض دجاجات تبيض يوميًا، كان ديكًا أسود اللون، ذا ذيل طويل، وعلى عنقه طوق أحمر، وأسماه «أبو سبع» لأنه كان ينام على شجرة تين كبيرة، غرسها والدي قبل أن ينتقل للسكن مع أسرتنا في هذا البيت الجديد الذي بناه في الحارة الشرقية>

منذ تلك الفترة اعتادت عيوني أن تقرأ حتَّى ساعات متأخرة من الليل، واعتادت عيوني أن لا تنام بعد الساعة السادسة صباحًا، أو قبل ذلك، وجسدي اعتاد على هذا النمط من تقسيم الساعات اليومي حتَّى هذا اليوم، خرجت للجلوس على سطح بيتي، فقد وضعت هناك أريكة مريحة في عريشة بنيتها بنفسي من الخشب، رأيت أضواء كثيرة من بعيد، وكأنَّها وهج يصعد للسماء، تذكرت أضواء هافانا في قصة الشيخ والبحر، التي أرغمنا مجبرين معلم اللغة العربية على قراءتها في الصف الحادي عشر، طبعًا يا لجمالها، وبعدها... شكرت المعلم طيلة أيام السنة على إرغامنا على قراءة هذه القصة الجميلة المميزة بالذَّات، ولكني أعلم أن هذه الأضواء، وهذا الوهج المتصاعد إلى السماء... ما هو إلا مشهد في منطقة بيتي، وليس باستطاعة عينَيَّ رؤية تلك الأماكن البعيدة

النائية كمثل هافانا.

سرحت بأفكاري بعيدًا وأبعد، ورحت أغيب في تأملات نادرة، ووصلت المناطق التي كنَّا قد تعلمنا عنها في المدرسة وأبعد، ما أبعدها من مناطق! يحتاج القاصد إليها أن يسافر ساعات في طائرات حديثة ليصلها، يا سبحان الخالق، يا سبحان الله -عز وجل-...

غريب أمرنا نحن بني البشر، كيف خلقنا الله –تعالى- على هذا النحو؟ تسرح أفكارنا محلقة في البعيد البعيد، نرى أماكن متشابهة، نربط الأماكن ببعضها من خلال فكرنا، نسير بأفكارنا إلى آخر العالم نرى كلَّ شيء، نتذكر كلَّ شيء، ونقارن كلَّ الأشياء ببعضها وكأنَّنا نجري عملية مفاضلة لفحص طويل جدًا للأمور، ونعود إلى هنا... في لحظات ونحن ما زلنا ها هنا في مكاننا، ولم نتحرك، ولم نترك المكان للحظة، أفكارنا تسرح مع أرواحنا، تجوب الطرقات، لكننا لا نعلم كيف تخرج أرواحنا لهذه الرحلات، وعلى أي طرقات تسير، حتى أننا لا ندري كيف تعود لجسمنا ونحن ما زلنا في المكان ذاته لم نبرحه، ولم نقم بأي حراك، وكأننا أصنام تجمدت في مكانها، يا سبحان الخالق العظيم، كيف خلقنا على هذا النحو والفكر الحسن؟

ومع كلِّ عقلنا الفذِّ هذا؛ نحن يا صديقتي حتَّى الآن لم نتمكن من صنع شريان واحد يعيش وينبض للحظات، أو لم نصنع خلية واحدة تحتوي على خواص خلايا جسمنا ذاتها... وإن حدث هذا الأمر سأدعوكِ وأدعو كل أصدقائنا، لحفل جميل ساهر ووجبة عشاء فاخر...

لكنني يا صديقتي بسيرة العمر الطويل هذا حتَّى الآن، لا يوجد عندي أصدقاء غيرك، وطبعًا صديقي العظيم عقلي

المتحير الثرثار، وأنتما ستُشارِكَانني الحفل، ولكنكما لا تأكلان أي شيء... أو الأصح أنكما لا تستطيعان تناولَ وجبة العشاء الفاخرة معي... ليس مهمًا يا صديقتي، سأدعو نفسي، وأتناول كل الوجبات بمفردي، ولكن كيف لي تناول ثلاث وجبات في عشاء واحد لوحدي؟! ولكن إذا كنتما معي، فأنا لست بمفردي.

قهقه عقلي ساخرًا من هذه المحادثة، وقال: أولاً اسمح لي أن أقول لك: إنك حتى في ساعات نومك وجلوسك منزويًا وأنت في قمة تفكيرك لست بمفردك، وفي ذهابك للعمل وإيابك هنالك ملايين الأشياء من حولك تتحرك وأنت لا تدري، أو لا تتمكن من رؤيتها بعيونك المجردة الصغيرة هذه...

ثانيًا صديقتك مثلي تمامًا تتغذَّى من أفكارك، يا لها من أفكار طيبة ولذيذة! لم يسبق لي في كل السنوات الكثيرة الماضية أن سمعت أفكارًا تجذب المستمع وتشنف آذانه إلى هذا الحد كأفكارِكَ، أو أعمالاً إنسانية سامية في هذا المستوى كأعمالكَ، والشرح عنها هنا قد يطول، باختصار كل الحديث معك ممتع ومفيد للغاية، نحن لا نملك الزمن لشرحها لكثرتها، ولا نملك المكان الذي يجب أن نخزنها فيه، فهي كثيرة حقًا، أنت دؤوب في الفكر، ودؤوب في عمل الخير، ولا تُضيِّع الوقت حتَّى تملأ المكان والزمان بهذه الأعمال المميزة، وتبحث وتجتهد في بحثك، عن أناس يحتاجون لمساعدتك...

اسمح لي أن أقاطعك يا عقلي المتحيِّر الثرثار، لحظة من فضلك...

قال لي وتابع: الأمر الأهم هو الأمر الثالث، فلك الكثير من الأصدقاء، في عملك وبلدك وباقي القرى والمدن ودول أخرى،

فأنت تعرَّفت إلى الكثيرين، وباستطاعتك التركيز على بعض العشرات منهم، لكنك أنت المشكلة حيث إنَّك لا تعتبرهم أصدقاء، وهم يعتبرونك الصديق الحميم الوفي المخلص، أنتَ لا تريدهم أصدقاء، ولكنهم هم أصدقاؤك حقًا، ولو أجريت أيَّ اختبار لهم فستجدهم إلى جانبك على أهبة الاستعداد، يساعدونك ويقفون إلى جانبك، ويلبون طلباتك كما ترغب.

يا عقلي المتحيِّر الثرثار، سبق وقلت لك إني لا أحتاجهم، ولا أريد منهم أي مساعدة، حتَّى لو اعتبروا أنفسهم أصدقائي، فأنا مع التحفظ على بعضهم لا أعتبرهم أصدقاء، بل مجموعة من المعارف من مجتمعات مختلفة، وثقافات مختلفة، يمكن للواحد منهم تقديم المساعدة للآخر فقط، طبعًا عند اللزوم، ساعدت صديقًا منهم يومًا، ونقلت له في سيارتي القديمة هذه، بعض الأغذية والوجبات الجاهزة، وفي أحد المطبات على الطريق المؤدِّي لبيت صديقي، وقع غِطاء أحد الأواني الغذائية، ووقع محتوى الإناء على كرسي السيارة، وبعد أن نزل صديقي من السيارة، وبطبيعة الحال، ساعدته لأخذ الأواني والوجبات الغذائية التي كانت والدته قد حضرتها له؛ لأن زوجته كانت حاملاً في الشهر التاسع، أخذت سيارتي هذه لغسلها في إحدى محطات الوقود، ولكن الرائحة الشديدة للطعام بقيت في السيارة، وكأنَّها ملتصقة في كل شيء، ترفض الخروج من السيارة، وفي اليوم التالي، وعلى مدار كلِّ أيام أسبوع عملي، من يوم الأحد وحتى يوم الخميس، كنت أركن سيارتي في الموقف في الطوابق السفلى، وعند المساء كنت أخرج من عملي وأعود للبيت كالمعتاد، ولكن رائحة الطعام الفاسد باتت رائحة كريهة جدًا في السيارة، وبالرغم من تركي نوافذ السيارة مفتوحة كل ساعات الليل، إلا أن هذه

الرائحة الكريهة جدًا لم تفارق سيارتي، وبات الحال على ما هو عليه حتى يوم الجمعة في الأسبوع ذاته، وكعادتي سافرت إلى شاطئ البحر لممارسة رياضة المشي على الشاطئ، والاستمتاع بالمساحات الشاسعة التي يسرح بها نظري على شاطئ البحر، ومسافات بُعد الأفق عن الشاطئ، وتَأمُّل عمق مسافات البحر... وقبل المساء بساعتين عدت لسيارتي التي ركنتها على الشاطئ تحت أشعة الشمس بدون ظل شجرة أو عريشة، وإذ بهذه الرائحة الكريهة البشعة للطعام الفاسد قد اختفت كليًّا، وكأنَّها لم تكن، وأنا لم أشتَمُّها بتاتًا، بالرغم من أن أنفي يتمتع بحاسة شمٍّ فائقة للروائح، استغربت هذا الأمر لدرجة التَّعجُّب، ماذا حدث للسيارة؟ أين اختفت هذه الرائحة الكريهة؟ هل كان هناك عمل كالسحر مثلاً؟ أو جاء أحدهم وغسل سيارتي بمادة عجيبة أزالت هذه الرائحة؟ أنا لا أفهم شيئًا! هذا الأمر هزني وكأني لم أنقل صديقي مع طعامه!

ركبت سيارتي، وبدأت بطريق العودة باتجاه بيتي، وتذكرت أن الفراعنة القدماء كانوا قد اكتشفوا عمليات خاصة لتطهير الأجساد في عملية تحنيطها، وكان عندهم قدرة التغلب على الروائح الكريهة التي تخرج من أجساد المومياء المحنطة، وعجبًا كيف كان ذلك؟ تذكرت أن السيارة كانت تحت أشعة الشمس في الموقف لعدة ساعات، واستنتجت وفهمت أن باستطاعة أشعة الشمس أن تُطَهِّر كل الروائح الفاسدة...

ولكن يا صديقتي ويا عقلي المتحيِّر الثرثار، هناك سؤال لطالما حيَّرني منذ زمن بعيد، من يُطهِّر قلوبنا التي لا تراها الشمس؟

فكرت لساعات طويلة بعدها، كيف يمكننا نحن بني البشر عرْض قلوبنا لأشعة الشمس لمباشرة عملية تطهيرها؟

لم أصل لنتيجة واضحة أو لأي برنامج إنساني عملي لبدء تنفيذ هذا المشروع البشري الضخم العام الأهم، فكلُّ قلب نُخرِجُه من بين الأضلاع يموت صاحبه، ولا يمكننا إعادته للحياة حتى لو أعدنا قلبه لمكانه كما كان بالضبط، وتحيَّرت كثيرًا حين فكَّرت بملايين البشر الذين يتوجَّب عليهم تطهير قلوبهم رغمًا عنهم، أو مساعدتهم بهذه العملية الصعبة، امتلأت قلوبهم بكل سواد العالم، وباتت تحت سيطرة الإساءة والخطيئة، وربَّما دون علمهم بذلك، فكلُّ ما يقومون به من عمل في أي مجال، يسيئون لمن حولهم حتَّى لو كانوا الأقرباء والأصدقاء، هؤلاء يجب تطهير قلوبهم فورًا قبل أيِّ شيء، فلو نُفِّذَت خططهم سيدمَّر الكون البديع هذا على يدهم بدون استثناء، ولكثرة ازدحام الإساءات في قلوبهم وعقولهم وأرواحهم، ولشدة غبائهم وشدة كرههم حتَّى لأنفسهم، هم لن يؤجلوا عملية مباشرة الدَّمار الشامل للكون، حتَّى لو كانوا من المتضرِّرين الأوائل... فجأة تذكَّرت أني قرأت عن أشعة الشمس، البنفسجية وفوق البنفسجية، هذه الأشعة التي تنظِّف محيط الشمس من الشوائب مرة واحدة في كل بضع أعوام.

وَغُصْتُ أفكِّر في ملوك الفراعنة، ومقابرهم وحياتهم ورسوماتهم وتماثيلهم المنحوتة على الصخر... وأهم شيء، الأهرامات الفرعونية والتي هي من عجائب الدنيا السبع، هذه المباني المحكمة الإغلاق، كيف يتنفس من في داخلها؟ أو كيف تُطَهَّر الروائح الفاسدة داخلها، ومن بعض الدراسات في الاجتهاد الشَّخصي الذَّاتي، قرأت يومًا يا صديقتي في أحد الكتب، عن اكتشاف العلماء لفجوات في مباني الأهرامات، والتي بنيت في مصر القديمة، قبل ما يزيد عن أربعة آلاف

سنة، فقد لاحظ العلماء بوجود فجوة دائرية صغيرة لا يتجاوز قطرها ٢٠ سم، وخاصة في هرم الفرعون «من كاورع» الشهير بمنقرع وغيره، وتمكَّن علماء الآثار من معرفة سرِّ وجود تلك الفجوة بعد ملاحظة دقيقة للغاية، إذ تبيَّن أنَّ أشعة الشمس، تدخل من خلال تلك الفجوة يومًا واحدًا فقط في السنة، إلى قبر الفرعون «من كاورع» تمامًا، والأعجب من هذا كله أنَّ هذا اليوم يتفق مع عيد ميلاد الفرعون، وأشعة الشمس هذه تدخل إلى مباني الأهرامات وقبور الفراعنة في مصر القديمة يومًا واحدًا في السنة تُطهِّر كلَّ الرَّوائح الكريهة التي داخل هذه القبور، ربما يموت جرذ هناك أو أفعى أو أي كائن حي آخر، ولكنَّنا نحن بني البشر، ندخلها ولا نشتم أي رائحة كريهة، بسبب دخول أشعة الشمس التي تُطهِّر هذه الرَّوائح الكريهة، حتَّى بعد فساد أجساد تلك الكائنات الحية داخل أهرامات مصر، يا للعجب! كيف استطاع العقل الفرعوني اكتشاف هذا الأمر الأكثر غرابة قبل ما يزيد عن أربعة آلاف سنة؟

هذا الأمر هو من الأمور الأكثر أهمية في العالم، حقًا فقد تحتاج عملية التحنيط إلى عدة شهور لإتمامها، فما عسى المحنطون أن يفعلوا في عملية تجفيف أجساد الفراعنة، الذين فارقوا الحياة وغادروا للغرب إلى العالم الآخر، ينتظرون دخولهم لعالم يجهلونه في الآخرة، الموت هو حالة تجمُّد الجسد وتوقُّف الكائنات الحية نهائيًا عن النمو والاستقبال والاستيعاب، والقيام بالحركة والنشاطات الوظيفية للإنسان، والحيوية في حياته اليومية، لا يمكن للأجسام الميتة أن ترجع لمزاولة نشاطاتها وحيويَّتها، كما كانت عليه قبل الموت إلا إذا غادرت للعالم الآخر، وإن لم تغادر لذلك العالم، فهي لم تنجح في عبور المحكمة التي يجب المرور بها للوصول

إلى هناك... ذلك العالم الذي وصفه الفراعنة بالراحة الأبدية والسعادة غير المنتهية، بموجب كتاب محاكمة الموتى، وضمَّنه الفكر في ذلك الحين بكل السعادة والخير، بالرغم من عدم رجوع أي فرعون من ذلك العالم ليحدِّثنا عن الأمور التي صادفته هناك في مصر الخالدة، والتي ينتظرها الفراعنة في حالة الموت والجمود لاجتياز امتحان المحكمة، المؤلفة من أربعين قاضيًا؛ كي يثبت لهم نزاهته ونقاءه وتقواه... في إيمانه العميق لتنفيذ جميع المبادئ الفرعونية المصرية، للوصول إلى هناك؛ حيث الحلم في الحياة بفردوس منقطع النظير، لتعود الحركة إلى القلب، ويعود العقل للتفكير، وهذا يحدث بعودة الرُّوح للجسد هناك، بعد المحاكمة العادلة...

هكذا كان إيمانهم وعرفهم المنشود، في الحياة الدنيا وعمله من أجل العالم القادم في الغرب، بعد محاكمة الفرعون للنيل من الحياة الأبدية، نعم جسد المومياء المحنطة في جنة مصر الخالدة.

ما أروع هذا الفكر العادل، ما أروع هذا الفكر المتناسق السيَّاب المتناغم بالمبادئ الفرعونية في مصر القديمة، هذه المبادئ يا صديقتي التي ما تحدثت معها من قبل وما التقيت بها أبدًا، تثير فضولي للسفر إلى مصر، والتعرف على هذه الحضارة العريقة، التي بحث فيها كل علماء الأرض، وكل شعوب وأمم أهل الأرض، ولم يصلوا للنهاية، حضارة بعيدة الأمد، بفكر عميق جدًا ومناهل حياة رائعة، استطاع فيها الإنسان من تحقيق ذاته، وتشييد مبانٍ وقصور وحدائق، حتى وصل بهم الأمر لبناء سابع أعجوبة عجز عندها الإنسان عن حل الكثير من الطلاسم والرموز، وخاصة في طرق بناء

هذه الأهرامات، لقد بنى الفرعون «خوفو» ثاني ملوك الأسرة الرابعة، الذي تبع الفرعون «سنفرو» على العرش أكبر هرم على الأرض، وبقي قرابة الأربعة آلاف عام، المبنى الأعلى الذي بناه الإنسان، كما وأسس وبنى جيشًا جرارًا قويًا، وبَسَط قوَّته، واحتل مساحات شاسعة من الأرض، جنوبًا وشمالاً، شرقًا وغربًا، حتَّى بات اسم مصر القديمة والفراعنة على كلِّ لسان...

حقًا إنها حضارة لا يستهان بها، ففي إمكانيَّات ضئيلة في تلك الأيام، وأدوات بدائيَّة يبنون ويشيدون مباني تبقى على مر العصور، شهادة دالة على عبقرية الإنسان في ذلك العصر، تثير فضولنا وتعجبنا نحن رجال هذا العصر الحاضر، كيف استطاع ذلك الإنسان البدائي، بناء مبانٍ تبقى للتاريخ الأعجوبة السابعة، لفكر بني البشر وعملهم على الإطلاق؟

يا للهول! يا للهول! يا صديقتي كيف يحدث هذا في عصر يكاد ينعدم فيه كل شيء؟!

ولكن وجود بارينا الخالق يُسهل عليَّ فهم الأمور، يا لقدرة الباري –تعالى- وعظمته في توجيه الأشياء وإدارتها بحكمته التي لا تزول، يقوي ذلك الإنسان البدائي الضعيف، يضع فيه القدرة الفكريَّة والحركة، ومبادئ التنظيم للمجتمع، والإرادة والمسؤولية، ليصنع العجائب التي نقف نحن بني البشر أمامها اليوم، مذهولين عاجزين نبحث عن طرف خيط لهذا العمل العظيم الرائع، لحل مجموعة هذه الألغاز، التي حيَّرت عقولنا على مر الأزمان والعصور، ولا نجد أيَّ شيء، لا نصل لأيِّ شيء يدلنا على بداية الطريق، أو على بداية الطريقة التي سلكها الفراعنة، لتشييد هذا البناء، هذا الصرح التاريخي

الضخم الذي بقي الأكبر والأعلى لآلاف السنين... يا لقدرته –تعالى-!

••••

صديقتي الجميلة الصغيرة الرائعة أجمل سيدات أهل الأرض، التي ما التقيت بها من قبل، وما تحدثت معها أبدًا، هذه وصيَّتي لكِ، وأنا أأتَمِنُكِ جدًا على كلِّ شيء، أنا يا صديقتي أثق بك ثقة عمياء، لذلك؛ لا أتحدثُ إلا معكِ، ومع عقلي المتحيِّر الثرثار، أنا يا صغيرتي لا أريد أن يقرأ أفكاري أحد، أو يكتشف مفاهيمي أحد، أنا لا أريد أن يفهم أفكاري أحد، أو يعيش كمثل حياتي أحد، وكتابي هذا أريده أن يبقى سرًّا مكنونًا بيننا إلى الأبد، فسأودعه عندك حتى آتي في آخر سنين الحياة الدنيا، قبل بداية فترة النعيم بسنوات قليلة، وأسترده منك، لأفحص نفسي في أي المجالات تقدمت حتى الآن، أقصد يوم آتي لآخذ الكتاب، وفي أي المسارات يجب أن أسير لأرتقي بمحبة الباري –تعالى- لإرضائه...

وحتى ذلك الحين، أرجوك أن لا تسمحي لأحد أن يقرأ كتاباتي؛ خاصة هذا الكتاب، ولا حتى أي نص قصير منه، لا أريد أن يطَّلع عليه أحد، أو يقرأ كلماتي سواك، سأعطيك هذا الكتاب، وأضعه وديعة عندك وأمانة، شريطة أن تنفِّذي مطلبي، فأنا وأنت يا صغيرتي جسم واحد وشخص واحد بِاسمَيْن!

أرجوك؛ احرصي على أن لا يعرف بهذا السر غيرنا، هذا السر هام جدًا؛ ويجب أن يبقى بيننا فقط، فلو عرفه الناس لازداد

فضولهم للنَّيْل منك من أجل الكتاب، فمعظم سكان الشرق الأوسط فضوليون، وفضولهم سيدفعهم بالقيام بأي شيء للحصول على الكتاب للنَّيْل من هذا السر الذي بيننا، بوركت، وسأدعو لك بالخير والمحبة والسعادة دائمًا، وحتى ذلك الموعد بيننا أوصيك أن تحافظي على نفسك والكتاب.

أمَّا أنت يا عقلي المتحيِّر الثرثار، كم تمنَّيت منذ آلاف الأعوام أن يهبني الخالق -عز وجل- عقلاً متحيِّرًا ثرثارًا مثلك كثير الأسئلة وكثير التفكير، لا يترك لحظة تمر على مدار الساعة بدون التفكير والبحث والتنقيب، في كل أمر، لا يدع برهة تفر منه بدون طرح ملايين الأسئلة، عن كل شيء في لحظات، أحمده –تعالى- على أنَّه وهبني إيَّاك لهذه الأعوام من العمر، وكم أتمنَّى أن ترافقني في الأعوام المقبلة من الأعمار القادمة، فأنت وأنا توأم رائع ومتميِّز، وعليه كم أتمنَّى أن ترافقني حتى النهاية... حتى النهاية...

حتى القيامة...

وفي دار النعيم الآخرة.

••••

● ● ● ●

# المؤلف في سطور

• ولد الشاعر والكاتب رافع حلبي في قرية دالية الكرمل، في تاريخ الثاني عشر من شهر أيار في العام ١٩٦٢ لأسرة متواضعة موحدة من بني معروف الدروز.

• متزوج من سعاد أبو ركن حلبي، وله أربعة أبناء عاصم وأدهم وحمودة وعساف.

• يسكن في بلده قرية دالية الكرمل على سفوح جبل الكرمل الأخضر الشامخ منذ ولد، فيها تربى وترعرع على المبادئ والعادات والتقاليد المشرفة المتعارف عليها في مجتمعات الشرق الأوسط.

• تعلم في مدارس القرية حتى التوجيهي، وأنهى دراسته الجامعية.

• كتب الشعر في النمط الحديث منذ الفترة المدرسية الابتدائية، ثم طور موهبته في فترة الدراسة المدرسية الثانوية، وقد نُشِرَت له قصائد كثيرة في الصحف والمجلات المعروفة في حينه مطلع السبعينيات، وأذيعت له قصائد عديدة عبر الأثير في البرامج الإذاعية الأدبية.

• شارك في عشرات اللقاءات الشعرية في المنتديات المختلفة والجمعيات، وقرأ الكثير من القصائد خلال برامجها.

• أصدر الشاعر ثلاثة دواوين شعرية:

– أنت كل النساء: في العام ٢٠٠٣.

– أنت معبدي: في العام ٢٠٠٤.

– ديوانه الثالث أنت وجه المَلاك: في العام ٢٠٠٧.

• في الفترة الثانوية كان ناشطًا في عدة مؤسسات للشباب، وانتخب رئيسًا لمجلس الطلاب، وأصدر في حينه مجلة مدرسية بعنوان «الشروق»، نالت نجاحًا كبيرًا.

• بعد فترة الدراسة وفي خلالها قام بمهام اجتماعية كثيرة، حيث شارك بعضوية عدد من الجمعيات والمؤسسات التي تهدف إلى التعايش السلمي المشترك، وخدمة المجتمع بدون مقابل ومنها جمعيتان دوليتان.

• في العام ١٩٩٦ انتخب رئيسًا لمجلس الأهل في المدرسة الثانوية «أورط هنري رونسون» لثلاثة أعوام متتالية، قام خلالها بفعاليات عديدة خدمت مصلحة الطلاب وتحسين وضعهم التعليمي، حيث وضع الطالب في مركز وبؤرة الصورة التربوية التعليمية، واستطاع التأثير على الجهاز التربوي التعليمي لتغيير المفاهيم وتجديدها بما في ذلك إدخال محاضرات كثيرة لا منهجية كمثل محاضرات روحانية للمشايخ الأفاضل، وكتاب وأدباء من خارج القرية، بما فيه خدمة مصلحة الطلاب وإحداث تجديد للأفكار المتبعة في حينه.

.

**شمس للنشر والإعلام**

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net